مقتطفات من قصص كتاب

" بهجة الصدور "

ذكريات
الحاج ميرزا حيدر علي

ترجمه من الانكليزية الى العربية
سيفي ابراهيم سيفي

4 شهر الرحمة 145

28 جون 1988

محفل مقدّس روحانى ملّى بهائيان امارات متحده عربيه شيّد الله اركانه

حسب الامر معهد اعلى مرقوم ميكردد كه لطفا به جناب سيفى ابراهيم سيفى ابلاغ فرمايند كه تا آنجائى كه اطّلاع در دست است كسى اقدام به ترجمه كتاب بهجت الصّدور بلسان عربى ننموده وان شاء الله نيّت خير ايشان بسيار مبارك است. مطمئن باشند كه ساحت رفيع در مقامات مقدسه عليا جهت موفقيّتشان دعا خواهند فرمود.

البتّه اكر آنجناب ترجمه مطالب مهمّه كتاب را مثلا تحت عنوان "كلجينى از كتاب بهجت الصّدور" مطمح نظر قرار دهند هم در وقتى كه صرف ترجمه كتاب نسبتا قطورى جون بهجت الصّدور خواهد شد صرفه جوئى ميكردد وهم بعدا از نظر جاب وطبع كتاب تسهيلاتى بوجود خواهد آمد.

با تقديم تحيّات
از طرف دار الانشاء
بيت العدل اعظم

قرئ كثيراً في ايران كتاب بهجة الصدور منذ طباعته في بومبي سنة 1913م. والآن ومن خلال تلخيص وترجمة جناب أبو القاسم فيضي، باستطاعة قّراء الغرب الاطلاع على بيانات هذا الرجل الشهير الذي عرف فيما بعد باسم (ملاك الكرمل).

نشأ الحاج ميرزا حيدر علي في بلد إتسم باضطراباته الدينية. فلقد تحالف علماء الشيعة المسلمين في ايران مع عائلة القاجاريين الحاكمة على ابادة اتباع دين السيد علي محمد (الباب) الذي ظهر في سنة 1844م، والذي كان هو نفسه الباب الى الشخص الموعود الذي كانت أيام ظهوره وشيكة.

أثارت الاضطهادات البربرية التي كان يواجهها البابيون روح البحث لدى الناس وكان من بينهم حيدر علي، حيث قرأ كتابات حضرة الباب وآمن به. وكانت البداية لحياة حافلة بالأحداث المثيرة حيث طافت به قرى ومدن ايران ومصر والسودان، حيث نفي وسجن هناك بسبب ايمانه بالدين الجديد، ثم الى تركيا والأرض الأقدس، حيث تشرّف بلقاء حضرة بهاءالله الذي بشّر بظهوره حضرة الباب.

كتب الحاج ذكرياته خلال سنين حياته الأخيرة في مدينة حيفا. وشرح مدى ما واجهه من مضايقات واضطهاد على يد رجال الدين المتعصبين وأتباعهم، معطياً بذلك صورة حيّة عن منطقة الشرق الأوسط خلال القرن التاسع عشر. ومن خلال وصفه للأصدقاء والأعداء، للشهداء والاشرار، تبرز صورة تخطيطية تذكارية لشخصية حيدر علي نفسه. ورغم طول معاناته، فقد احتفظ دائما بروح الفكاهة وحافظ بثبات على استقامته في مواجهة الاعتقال والغدر والتهديدات بالقتل. ولم يتراجع لحظة واحدة عن ولائه واخلاصه للدين الجديد الذي أعتنقه.

المقدمة

من أكثر المشاهد اثارة في تاريخ الديانة البهائية، قصص ايمان تلك النفوس العديدة المتلهفة لأمر حضرة الباب وحضرة بهاءالله، التي ظهرت في كل مكان وفي كل مرحلة من مراحل الحياة. وكان أقل بصيص من نور شمس الظهور كافياً لهم ليقولوا (آمنّا)، وتنكشف بحركة اصبع بسيطة حجب أرواحهم وتتنور بنور الرسالة الألهية.

كان الحاج ميرزا حيدر علي، واحداً من تلك النفوس الكثيرة. ولد في مدينة اصفهان. كان والده من الشخصيات الاسلامية المعروفة في المجتمع ومن اتباع المذهب الشيخي البارزين. حرص على تعليم ولده أفضل علوم زمانه. فسعى الحاج

لدراسة المناهج الاسلامية وغيرها كالقرآن واللغة العربية وعلم التفسير والفلسفة وعلم البيان.

وقف الحاج في أيام شبابه ثابتاً أمام مشاكل الحياة الشديدة، وكأن قوة خفيّة أمدته بالعزم كي يبقى راسخاً وقوياً أمام جميع البلايا والمصاعب التي واجهها، من نفي متكرر واعتقال في سجون مخيفة. وبوصوله الى ريعان شبابه، لم يبق هنالك أدنى شك في سمو ورفعة أخلاقه واستقامته.

بشّره أحدهم - ذات يوم - بظهور القائم، فرمى الحاج نفسه في بحر الظهور الجديد. ومن ساعتها، لم يواجه سوى المتاعب والنفي والاعتقال. لم يثأر في حياته ولم يظهر أي رغبة للعداء او الانتقام أبداً. وواجه بشجاعة واصرار عواصف الحقد التي قذفت به في دوامات التعاسة مرة بعد اخرى، وبقى ثابتاً في تحمل وتقبل كل المصاعب بالشكر والامتنان والرضا العميق.

في النهاية، استدعاه حضرة عبدالبهاء الى الأرض الأقدس، حيث استقر هناك لبقية حياته.

غالباً ما كانت تصل حيفا، رسائل من أحباء الأقطار الشرقية تطالب الحاج بزيارة ديارهم، وتفوح منهم - في نفس الوقت - روائح الاحترام العميق لهذا الجندي المحنّك. لكن حضرة عبدالبهاء رفض ذلك دائماً، وغالباً ما كان يغطّي الحاج بعبائته ويحتضنه ويقول: "الحاج لنا.. الحاج لنا..".

كان حيدر علي من ضمن الأصحاب الذين اعتادوا حلاقة شعر رؤوسهم طوال فترة اعتقالهم، واستمر على ذلك حتى بعد اطلاق سراحه. وذات يوم اشتكى - وهو في حيفا - ألماً في عينيه. فنصحه حضرة مولى الورى، بقوله: "لا تحلق شعر رأسك بعد الآن، وحاول يومياً كتابة عدة صفحات".

أتبع الحاج تعليمات مولاه بحذافيرها، وكانت ثمرة تلك التمرينات اليومية الشيّقة، هذا الكتاب الذي بين يديك.

أبو القاسم فيضي

مقدمة المترجم

جاء اختيار جناب أبو القاسم فيضي موفقاً جداً في ترجمة هذا الكتاب الى اللغة الانكليزية، لما يحتويه من معلومات وحوادث تاريخية عظيمة وفريدة حدثت خلال القرن الماضي (القرن التاسع عشر) في منطقة الشرق الأوسط. ليقدمها الى القاريء الغربي كي يطّلع على مقدار معاناة معتنقي الديانة البهائية الأوائل.

وحان الوقت الآن، لقرّاء اللغة العربية - من خلال هذه الترجمة المتواضعة - التمتع بقراءة أحداث تلك الأيام العظيمة التي تنعش أرواح قرّائها وتمدهم باحساس مفعم بالحرارة والنشاط وتمكنهم من الاطلاع على تاريخ وأحداث سنين الأمر المبارك الأولى من خلال ذكريات ومشاهدات الحاج ميرزا حيدر علي ومن عاصره وزامنه من المؤمنين والأصحاب.

استغرقت هذه الترجمة وقتاً طويلاً، فبداية العمل كانت في سنة 1989م، وآخر تنقيح له انتهى في سنة 1998م، وذلك لقلّة اطلاعي وانعدام خبرتي في هذا المجال. فكم من مرة قررت فيها التوقف والانسحاب. ومما زاد في تأخيرها ايضا، ما أخبرني به بعض الأحباء والأصدقاء عن وجود ترجمة عربية جاهزة. ولكن، وحسب نصيحة أحباء آخرين قررت الاستفسار عن ذلك برسالة رفعتها الى ساحة المعهد الأعلى، طالباً فيها الأرشاد والهداية. فتفضلوا ليؤكدوا عدم وجود نسخة عربية سابقة، وأمروا بتسمية هذا العمل "مقتطفات من كتاب بهجة الصدور". فوقع جوابهم كالسحر على روحي، وشعرت وكأن قوة جديدة حلّت في كياني، فزادت من زخم عملي بجدٍّ من جديد.

سيفي ابراهيم سيفي

1998م

شهر البهاء - 155 بديع

ملاحظة:

ان كل ما جاء من نصوص وفقرات مباركة داخل الكتاب عن لسان حضرة بهاءالله او حضرة الباب او حضرة عبدالبهاء، لا تدل حرفياً على ما تفضلوا حضراتهم به، بل انها توضح قدر المستطاع معاني كلماتهم المباركة.

يبدأ الحاج ميرزا حيدر علي حكايته، فيقول:-

غالبا ما يسألني الأحباء عن قصة معرفتي بالأمر المبارك وكيفية ايماني به. واليكم الحكاية:-

كثيرا ما شاهدت خلال حياتي في ايران أناساً يضطهدون ويضربون ويعذبون بدون رحمة حتى الموت. ورأيتهم - في بعض الاحيان - يعلقون من آذانهم او أيديهم ويرجمون بالحجارة. ورغبة مني في معرفة سبب وقوع مثل هذا العقاب القاسي على هؤلاء، دنوت من عدة أشخاص لأستفسر عن السبب. لكن الجواب الوحيد الذي كنت أحصل عليه دائما، هو: "أنهم بابيين".

قادني عطشي الروحي الى العديد من المدن الايرانية. أدخل المدينة أبحث عن رجال الدين فيها لأستمع وأصغي اليهم. لكن أملي كان يخيب دائما. وذات ليلة، وأثناء اقامتي في مدينة اصفهان، دعيت مع عدد من الأصدقاء الى أحدى الحدائق العامة. فتكلم الحاضرون في شتى المواضيع المختلفة. ثم دار الحديث بطريقة ما ليتناول موضوع حضرة الباب وديانته. فأخذت فرصتي للكلام وقلت مخاطباً الحاضرين: " لقد ارتكب هذا الرجل خطأين عظيمين كانا السبب في اخفاقه وتدميره. الأول هو مواجهته الفردية لسلطات راسخة وقوية. والثاني، محاولته قلب عادات ومعتقدات المجتمع. كان عليه الارتكاز والارتباط بأحدى هاتين القوتين، حتى يكسب التأييد لدعوته ".

فأجابني أحد الحاضرين بأدب: " ان كان ذلك خطأ. فقد ارتكبه من قبل جميع رسل الله، ومن ضمنهم خاتم النبيين سيدنا محمد (ص) وجميع الأئمة الأطهار ".

أدهشتني هذه الاجابة وارتبكت لوقوعي في مثل هذا الخطأ الفادح وهذا البيان الساذج. وأدركت ان محدثي بابي ولا شك، وان هناك الكثير في هذا الأمر مما لم أطّلع عليه. فقررت مصاحبة هذا الشخص. لكن ذلك لم يكن بالأمر اليسير، خاصة وان البابيين كانوا في خطر عظيم وملزمين باتخاذ تمام الحيطة والحذر.

في النهاية، اتخذني كواحد من تلامذته. الا أنه بقي - في باديء الأمر - حذراً في تعامله معي بالرغم من جديّة بحثي، ونادراً ما كان يخبرني بالحقيقة مخافة عاقبة أظهار ما يضمره من معتقداته الشخصية، ورغم انه لم يتطرّق الى موضوع الأمر المبارك، الا انه كان يمهد الطريق لنقاش مثمر ومفيد. وبالتدريج ومع مرور الوقت، فزت بثقته.

ذات يوم، جذبني صراخ وهياج حشد من الناس في احدى ساحات المدينة. فدنوت لأرى خمسة رجال بأشكال وأزياء متباينة، بين سيّد وتاجر ورجل دين، وقد سمّرت آذانهم الى عمود وأنهال عليهم الجنود بالضرب بالعصيّ يطالبونهم بنكران عقيدتهم. فأدهشني هدوءهم وصبرهم وشكرهم لله وهم على تلك الحالة المزرية واصرارهم على عدم الانكار، واستشهادهم بآيات من القرآن لاثبات صحة دعوى رسولهم الباب. فهاجت نار البحث في صدري بمشاهدة ثباتهم وخضوعهم لارادة الله واقتبست شعاعاً من نور عظمة هذا الأمر المبارك.

بعد توثّق صداقتي مع صاحبي وتأكده من اخلاصي، أخبرني بأنه بابيّ. فبدأنا بالبحث والتعمق في الأمر. لكننا لم نستطع الالتقاء علناً، لأننا كنّا نخشى اكتشاف أمرنا. فكانت مواعيد وأماكن لقاؤنا في تغيّر مستمر. اذ كان يدعوني في بعض الليالي الى منزله - بعد منتصف الليل - وكان عليّ الدخول والاختباء في الممر حتى نتأكد من نوم جميع أهل البيت. ثم، يظهر صاحبي ليقودني بهدوء الى المطبخ حيث نجلس لدراسة كتابات حضرة الباب وترتيل آياته. كان الظلام في بعض الليالي دامساً يمنعنا من رؤية الكلمات وقرائتها، فكنّا نضع شمعة على أرضية التنور ونمسك الكتاب في مواجهة ضوءها بصعوبة بالغة لكي نتمكن من القراءة.

وعندما يحين دوره لزيارتي، يكون ذلك بنفس درجة السريّة والحذر، بل وبصعوبة أكثر في بعض الأحيان. وفي الغالب، لم تضم اجتماعاتنا أكثر من ثلاثة أو أربعة أشخاص وفي أوقات متأخرة من الليل. استأجرت - ذات يوم - غرفة علوية في أحد المنازل لها نافذة تطل على حديقة البيت. وحتى لا يعلم أهل الدار بمواعيد وأوقات مغادرتي لغرفتي أثناء الليل، تعودت التسلل للخارج من النافذة بواسطة حبل ربطته الى قضيب حديدي. ثم أعود اليها بنفس الطريقة قبل بزوغ الفجر.

* * *

كان والدي مسلماً شيخياً من اتباع الحاج محمد كريم خان(1). وقف بشدة وحزم أمام قضية ايماني، ولاحقني الى كل مكان معارضاً ذلك. وتبادلنا الرسائل في محاولة لاقناع أحدنا الآخر بصحة رأيه، ولكن ذلك لم يجد نفعاً او فائدة. وفي النهاية غادر مدينة كرمان جاداً في أثري. فعثر عليّ في مدينة صغيرة تدعى نائين. فاستبشر خيراً، وكان أمله كبيراً في عدولي عن رأيي، خاصة وان غالبية سكان هذه المدينة كانوا من اتباع محمد كريم خان.

ذهب والدي الى حاكم المدينة حيث كان صديقاً شخصياً له، وطلب مثولي أمامه. فأستُدعيت الى بيت الحاكم، وتكلمت هناك - بعون الله - بطريقة استحسنها جميع الحاضرين. وكانوا يثنون عليّ - بين الحين والآخر - بعبارة: " لتحرسك وتحميك بركة كريم خان ".

اعتاد أهالي تلك المدينة الصغيرة تلاوة آيات من القرآن بعد صلاة الفجر، وأسندوا لي شرف تلاوتها. فبدأت أمهد للنقاش، بأن أدخلت في تلاوتي لها بعضاً من آيات

حضرة الباب. ولمّا لم ينتبه أحد للفرق او يكتشفه، اغتنمت الفرصة لأثبات برهاني للحاضرين وخصوصاً والدي.

كان لي عمّ يدعى محمد علي يعيش في نائين، وهو صديق حميم لي وعلى اطلاع بحقيقة تدهور علاقتي مع والدي. سألته يوماً ان كان على استعداد لحمايتي واخفائي وتهريبي الى مدينة اصفهان، اذا ما تدهورت علاقتي مع والدي أكثر مما هي عليه الآن. وبمجرد موافقته على اقتراحي، هيأت كل ما يلزمني للمغادرة والسفر. وذهبت لزيارة والدي في مجلس الحاكم، حيث كان جالساً مع عدد من الحاضرين. وبعد القاء التحية وتقديم الاحترام اتخذت لي مجلساً بجانبه، وبادرته بصوت سمعه جميع الحاضرين.

قلت: يا والدي.. لنفرض انني ولدت كفيف البصر ولا أعرف شكلك وهيئتك. ألا يمكنني التعرف عليك وتمييزك من خلال صوتك؟

فرد عليّ: ما هو هدفك من هذا السؤال؟

قلت: دعني أكمل حديثي حتى النهاية، وسأبين لك هدفي. ثم أردفت قائلا. ولنفترض أيضا انك ستسافر لمدة طويلة وتتأخر في سفرك. الا اني حال عودتك، سأميزك وأعرفك من خلال صوتك وسأركض للقاءك وسأعرف من خلال حنانك وعطفك ومحبتك، انك أبي بالتأكيد.

وافقني الحاضرون على ذلك، وقالوا انها حقيقة واضحة وبديهية معقولة. أكملت كلامي، وقلت: لاشك انكم جميعاً تميزون آيات القرآن وتعرفونها حتما من الأسلوب والكلمات. والآن اليكم السؤال. غالبا ما أدخلت في تلاوتي لآيات القرآن الكريم عليكم، آيات خاصة بالسيد الباب. فلماذا لم يعترض أحدكم على ذلك او حتى ينتبه اليها؟ أليس ذلك بلا ريب او شك دليل على ان كلمات السيد الباب لها نفس الصدق والقوة وتمتلك نفس التأثير وانها جاءت من نفس المصدر؟

بهذه الكلمات أنهيت النقاش بيننا وتركت القاعة مسرعاً وتوجهت الى بيت عمي لأختفي وأتوارى عن الأنظار لمدة شهر كامل. وعندما خفّت وباءت جميع محاولات البحث عني بالفشل، تركت مدينة نائين بسريّة وتوجهت الى مدينة اصفهان. لكن والدي تبعني الى هناك مع عدد من أصدقائه وحاولوا جاهدين سلب حريتي أو القضاء عليّ بشتى الوسائل. لكن حجة الاسلام(2) السيد أسد الله - وهو احد أقرباء والدتي وذو نفوذ كبير في المدينة - وقف بحزم وصلابة مع اتباعه ضد والدي واصحابه، خاصة وانهما على عداء دائم وعلني منذ زمن بعيد. فناصرني العلماء لمجرد معارضتي خصومهم. وفي النهاية هزم اعدائي وانتصرت أنا. لكن والدي حرمني من الميراث بعد وفاته.

* * *

أمضيت في اصفهان غالبية أوقاتي مع جناب زين المقربين(3)، وتعودنا الخروج الى الحقول والأرياف بعيداً عن ضوضاء القرى والمدن لمجرد الانفراد والاعتزال ودراسة البيانات المباركة وترتيل المناجاة والتباحث في دين الله الجديد. وأعطتنا تلك الأوقات السعيدة شعوراً بالحياة، الا ان رغبتنا كانت شديدة في تبليغ أمر الله واعلان اسم المحبوب بأي طريقة ممكنة وحاولنا ذلك بشتى الوسائل.

ومن جملة محاولاتنا، ذهبنا ذات يوم الى أحد الأطباء الهنود ليشكو له جناب زين ألماً في قلبه وعدم استطاعته العثور على طبيب حاذق يستطيع معالجته. وعندما تسآئل الطبيب عن السبب. أجابه جناب زين بأنه كان ماشياً في أحد شوارع المدينة قبل عدة أيام وشاهد منظراً غريباً، كان هناك بضعة اشخاص ضعاف لا حول لهم ولا قوة واقعين بين أيدي مجموعة من الغوغاء يضطهدونهم ويعذبوهم بدون رحمة. فآلمه هذا المشهد وأزعجه كثيراً. ومن ذلك الحين شعر بألم ووجع في قلبه. وهكذا.. واصل جناب زين حديثه مع الطبيب عن ديانة السيد الباب وعن كتاباته وتاريخه المأساوي.

وذات يوم، مررنا بمكان جميل فيه جدول ماء وبعض الاشجار خارج مدينة اصفهان. فقررنا المبيت هناك ووقع اختيارنا على المسجد لقضاء ليلتنا فيه. وعندما دخلنا، أثارت غرابة هيئتنا فضول الحاضرين. فتقدم أحدهم يسألني عن بلدتي. فأجبته انني من شيراز، رغم ان لهجتي تميل للأصفهانية.

فقال الرجل: ولماذا تكذب؟ يتضح من لهجتك انك اصفهاني. لعنة سبعين الف ملاك على الكاذب.

سألته وأنا أأمل خلق فرصة لتبليغ الأمر: هل رأيت الملائكة؟

أجاب: ولماذا تجب عليّ رؤيتهم. انهم مذكورون في معتقدات ديننا الثابتة.

فقلت له بقلّة حذر: أستطيع الجزم انك قد رأيتهم من خلال فطنتك ونباهتك الروحية.

وهنا أدرك الحاضرون مقصدنا، فصرخوا على الفور: انهم بابيين.. اقبضوا عليهم. فأسرعنا مضطرين للفرار تاركين خلفنا بعض حاجياتنا لننجو بأنفسنا.

غالبا ما كانت تحدث مثل هذه المشاكل. فقد حدثت لي قصة مماثلة طريفة مع طالب في احدى المدارس الدينية، حيث تعودت الكلام عن الأمر معه، ولبى عدة دعوات لزيارتي في منزلي، وقدمته لبعض الاصحاب بعد ان اخبرني باقتناعه بالأمر، وأعطيته بعض بيانات حضرة الباب المباركة. لكنني فوجئت بمن يخبرني ان هذا الشخص قد أسرّ اليه بتعرّفه على بعض البابيين وهو بانتظار معرفة البقية وكشف خططهم حتى يبلغ السلطات لالقاء القبض عليهم. فما كان مني الا ان سبقته الى مدير المدرسة لأخبره بوجود تلميذ بابي بين طلابه وفي حوزته بعض بيانات السيد الباب، بينما ارسلت في نفس الوقت من يخبر ذلك السيد بما أقدمت عليه. فتملكه الهلع والرعب وهرب مخلفاً ورائه كل حاجياته، وولى هارباً من المدينة دون عودة.

وبعد عدة سنوات، وبينما كنت في طريقي الى بوشهر قادماً من شيراز، توقفت للاستراحة في مسجد لمدينة صغيرة. ففوجئت بوجود ذلك السيد هناك وتعرّف عليّ حال رؤيتي ولمعت في عينيه فرصة للثأر مني.

فتقدم نحوي، وقال: هل تذكر ما فعلته بي في اصفهان؟

قلت: نعم، أنت الطالب البابي الذي كان سيقبض عليه ويقتل في اصفهان، وقد جئت للأختباء هنا في هذا المسجد.

فأرعبه جوابي. ومن خوفه الشديد لم يفارقني أبداً طوال فترة اقامتي في المسجد، خوفاً من تكرار فعلتي. وخدمني بتقديم الشاي والطعام حتى وقت رحيلي.

* * *

رغم استمرار اضطهادي في اصفهان ومواجهتي للعديد من المصاعب الكبيرة في بعض الاحيان، الا انني كنت سعيداً، أعشق كتابات وآثار حضرة الباب وخاصة البيان الفارسي الذي كنت قائماً على استنساخ جزء منه كل يوم. وكان هنالك الكثير ممن يعلمون في تلك الايام ان موعد ظهور (من يظهره الله) ليس بالبعيد. كنت أردد دائما اذا لم يظهر حضرة الباب نفسه، لكانت بشارات الشيخ احمد والسيد كاظم(4) عديمة الفائدة، وان لم يتبع ظهور حضرة الباب - في هذه الايام - ظهور أمر (من يظهره الله) لأصبحت وعود حضرة الباب عديمة الفائدة والغرض ايضاً.

لم أستلطف أزل(5)، وكنت أتساءل دائما عن الفرق بين - غيبة أزل - وغيبة أمام الشيعة الثاني عشر(6)؟ اضافة الى ذلك، فقد تأكدت من سخافة مجمل كتاباته، عدا ما اقتبسه من كتابات حضرة الباب. لكني كنت مضطرباً ومتزلزلاً من هذه الأفكار.

ذات يوم، أحضر جناب زين لوحين من آثار حضرة بهاءالله. فشاهدت فيهما قوة خفيّة حقيقية وسحراً في كلماتها. فعشقت هذه الآثار. ثم جاء جناب الحاج سيد محمد أفنان (خال حضرة الباب) الى اصفهان وهو يحمل معه هدية ثمينة، نسخة من كتاب "الأيقان" النازل جواباً على أسئلته الشخصية. فأنجذبت لحضرة بهاءالله ولبيانه

ومنطقه وآثاره بعد قراءة (الايقان) لآلاف المرات. ورددت قولي الدائم الصريح، ان كتابات حضرة بهاءالله هي أعظم معجزة ظهرت حتى الآن. لكن بعض الاشخاص كانوا غير سعداء بوجهة نظري هذه!

حدّثني أحد الأزليين قائلا: ان حضرة بهاءالله يريد استباق الوقت والاستفادة من نبوءات حضرة الباب والادعاء بانه هو (من يظهره الله). لذلك اعتقل أزل، ويجبره - بالضرب أحيانا - على تأليف الكتب، ليضع في النهاية اسمه عليها باعتباره مؤلفها.

تعجبت من هذا المنطق أشد العجب، اذ لم أسمع بهراء مثل هذا من قبل. وأشرت الى محدثي أذكّره بكتاب الأيقان باعتباره عملاً رائعاً عديم المثال، وأشرت في نفس الوقت الى تفاهة معاني كتابات أزل وركاكة اسلوبها. فأجابني: ان مؤلف كتاب "الأيقان" هو أزل وليس حضرة بهاءالله. أما ما ينشر باسم أزل من كتابات سخيفة، فهي ليست له ولا تخصه وانها تنسب اليه نسباً. فزاد ذلك من تعجبي، لكني أغلقت الموضوع ولم أناقش محدثي طالما ان الحديث كان وديّاً وشخصياً بيننا.

واظبت على استنساخ كتاب البيان، واشتهرت بذلك في مدينة اصفهان، وشيئاً فشيئاً تجنبني الاصدقاء واصبحت وحيداً بلا مأوى.

اتخذت لي ملجأ داخل غرفة قديمة في مدرسة دينية كبيرة مهجورة، يقطنها مدرس فقير يمتهن تعليم الاطفال. لم يكن بحوزتي هناك سوى نسخة من القرآن ونسخة من البيان وكتاب الأيقان وكتاب مثنوي(7). فجهزت نفسي لأربعة شهور من العزلة والتعبد. وقام حارس المدرسة على توفير احتياجاتي وتهيئة طعامي. فلم اقابل في ذلك المكان الخرب أي شخص طوال فترة اقامتي، ولم يعلم أحد بوجودي هناك. لكني أدركت بالتدريج ان العزلة هي أهدار لحياة الانسان، وقلت في نفسي بأن الله لن يقبل أعمالنا الا بخدمة الآخرين وهدايتهم الى الصراط المستقيم والظهور الجديد. فقررت الخروج من عزلتي والسفر الى مدينة اصفهان.

سافرت لأكثر من ست سنوات من مدينة الى مدينة ومن قرية الى قرية، قاطعاً ايران طولاً وعرضاً، ورغم سفري تحت أقسى الظروف، الا انني كنت في غاية السعادة، وأعلنت عن ظهور حضرة الباب في كل مكان وعن قرب موعد ظهور (من يظهره الله). وهاجمني الناس في عدة مناسبات فضربوني وسجنوني وسببوا لي آلاماً لا تحتمل، وغالباً ما ضربت ضرباً مبرحاً وأكثر من تحملي.

ذات مرة، ضربت كثيراً حتى كست الجروح جسمي، فتقدم لنجدتي شخص من طائفة العلى اللّهية(8) واستضافني في بيته حتى شفيت والتأمت جروحي، ثم عاودت اكمال سفري بعد استعادة قوتي.

ذهبت الى شيراز وتوجهت مباشرة الى مسجد ايلخاني - حيث كان يقيم الملا حسين بشروئي وصحبه سابقا - فالتقيت بخال حضرة الباب الحاج سيد محمد أفنان(9) وعدد من المؤمنين. كان ذا ابتسامة دائمة ووجه يشع بالفرح والسرور. ووجدت جميع الاحباء في شيراز منجذبين لحضرة بهاءالله ولا أثر لأسم أزل ولا لذكره بينهم أبداً.

اقتبس أحد الأصحاب ويدعى سيد عبد الرحمن من كتاب الأيقان - وكان مطّلعاً ومتبحراً فيه - العديد من الآيات الدالّة على ان (من يظهره الله) ليس سوى حضرة بهاءالله، وان أزل لم يكن غير اسم دون جوهر. ثم ذكر لنا القصة التالية:-

"اشتهر وذاع صيت أزل بعد استشهاد حضرة الباب، فسافرت الى طهران لمجرد لقائه ورؤيته. ولكنني تذكرت خلال الطريق ان ما قدّم من احترام وتقدير من جميع الموجودين في مؤتمر "بدشت" لحضرة بهاءالله، لم يكن بأقل مما قدّم لجناب القدوس وحضرة الطاهرة.

التقيت حال دخولي سوق مدينة طهران بحضرة بهاءالله - وكان ما يزال يخفي بهاءه خلف حجب من الأنوار - فتقرّب مني وسألني بطريقة لطيفة رائعة ان كان سبب قدومي هو لقاء أزل. ورافقني الى منزله بعد ان علم برغبتي في ذلك. دخلنا المنزل

وجلسنا في غرفة الضيوف، وعندما أمر بالشاي دخل علينا بعد قليل أخوه أزل وهو يحمل السماور بين يديه. فقدّم لنا أقداح الشاي، ثم عاد ليقف عند الباب صامتاً دون حراك، بينما كانت أنهار الحكمة والمعرفة تنهمر من فم مشيئة حضرة بهاءالله وهو يخاطبني. وبعد الانتهاء من تناول الشاي، نهض حضرته والتفت الى أزل ليقول له: (لقد جاء لرؤيتك). ثم تركنا بمفردنا وتوجه الى داخل الدار. فانحنيت احتراماً لشخص أزل وانتظرته حتى جلس وبقيت صامتاً انتظر ابتداءه الكلام. لكنه بقي صامتا ولم يتفوه بكلمة واحدة ".

* * *

اتخذت مهنة نسخ الكتب كمهنة لي للحصول على قوت يومي، كما عملت في شتى المجالات الاخرى. مرة عملت طبيباً ومرة قرأت الطالع والمستقبل وأحيانا كتبت التمائم والحجب واستحضرت الارواح. ونجحت بفضل الله في كل ذلك وكسبت رزقي. وكنت أقسّم ما أحصل عليه الى نصفين، الأول لضروريات حياتي والآخر للفقراء والمحرومين. كما مرت عليّ ليال لم يكن عندي سوى الماء.

في تلك الأيام اعتدنا رؤية جماعة الدراويش وهم يمضون أوقاتهم وحياتهم في اكتشاف مادة الأكسير - المادة التي تحول جميع العناصر الى معدن الذهب - وبحوزتهم مخطوطات قديمة تشرح طريقة ذلك. وكانوا موقنين تماما من نجاحهم في اكتشاف تلك المادة في نهاية الأمر ومقدرتهم على تحويل جبال من المعادن المختلفة الى ذهب. ولقد وجدت في استنساخي لمخطوطاتهم موردا للرزق لابأس به.

كنت استغرب جداً لنفي واعراض اتباع الديانات الاخرى لما نقدمه لهم من براهين وأدلة عقلية ونقلية عن حقيقة الرسالة الجديدة. بينما يؤمنون - في المقابل - تماما بمقدرة اتباع رسلهم على عمل المعجزات حتى وهم في قبورهم.

أخيراً، سلكت طريقي الى بغداد، وقطعت تلك المسافة الطويلة مشياً على الأقدام، متحملاً كل أنواع المتاعب والمصاعب، رغم قلّة ما أحمله من نقود. كنت أظل ماشياً لعدة أيام حتى أصل الى قرية التجيء اليها للاستراحة وللاعتناء بجروح قدمي وراحتها واستعادة قوتي لمعاودة رحلتي. وكان بعض أصحاب الخانات الذين مررت بهم خلال الطريق قساة متحجري القلوب، منهم من مانع حتى في دخولي خاناتهم ومنهم من طلب أجراً عالياً. لكنني أتممت رحلتي الطويلة الى بغداد. ولا زلت أذكر حتى هذا اليوم وبكل شوق متعة تلك الأيام الجميلة وأشتاق الى كل لحظة من لحظاتها.

علمت أن جناب زين يسكن بغداد، وان لغالبية الأصحاب مصالح وأعمال في "سوق الهرج" أحد أكبر أسواق مدينة بغداد. فتوجهت فور دخولي المدينة الى السوق المذكور، وبحثت عن جناب زين بمساعدة بعض الأصحاب، وهو بدوره قدمني الى عم لي لم أكن قد رأيته من قبل اسمه ميرزا محمد وكيل(10)، آمن بالأمر المبارك وانتقل ليسكن كربلاء والنجف وهما من مدن العراق المقدسة. فاستقبلني بترحاب بالغ واستضافني في منزله وأكرم وفادتي على خير مايرام. وبعد عدة سنوات علمت أنه وجناب زين كانا ضمن أكثر من ثمانين مؤمناً أبعدوا من بغداد الى مدينة الموصل في شمال العراق. لكنه عاد اليها بعد عدة سنوات، بينما استقر جناب زين حسب تعليمات حضرة بهاءالله في الأرض الأقدس.

كان يسكن بغداد عند وصولي اليها جناب اسم الله منير(11)، أحد قدماء الأصحاب. فأمضيت أغلب أوقاتي مع هذه الروح النقية المتحلية بجميع الفضائل السماوية. كما سكنها أقا ميرزا جواد، أحد الأحباء الذين حفظوا عن ظهر قلب نص كتاب قيّوم الأسماء (تفسير سورة يوسف) النازل من قلم حضرة الباب، واعتاد على شرح وتلاوة آياته. وهو من المؤمنين المخلصين لحضرة بهاءالله ولم يكن يذكر سيرة أزل أبدا.

عدت الى شيراز عن طريق البصرة وبوشهر، بعد قضاء فترة من الوقت في بغداد. وتصادف ان قابلت هناك شجاع الملك أحد قادة جيوش الشاه الذين حاربوا وحيد في نيريز. ومع إنه كان عدواً للأمر، الا انه اعترف أمامي بأن وحيد كان أعظم علماء زمانه، وخصوصاً في تفسير القرآن، ووصف شجاعته وشجاعة أتباعه في معاركهم ضد جيشه بمثل شجاعة شهداء كربلاء(12).

كما التقيت أيضا بأمين خزانة الأمير مهدي قلي ميرزا، أحد الذين قادوا قوات الحكومة في معارك طبرسي(13). فذكر لي أنه قد أشيع في ذلك الوقت ثلاث روايات خاطئة لا أساس لها من الصحة. الأولى أنني اعتنقت هذا الدين وتركت دين الأسلام. وهذا ادعاء كاذب. والثانية أنني واجهت الملا حسين خلال المعركة وتقاتلت معه وجرحني. وهذا غير صحيح. لأن كل من تقابل معه خلال القتال كان نصيبه الموت فوراً. والثالثة انني قتلت الملا حسين وجهاً لوجه. والحقيقة انني صوبت بندقيتي الى ظهره عندما كان وجهه الى الناحية الأخرى وقتلته.

* * *

قابلت جناب منير للمرة الثانية في طهران، ولمعرفته السابقة بقناعتي وحبي لجمال القدم(14) أطلعني على لوح سيرة الأصحاب النازل من قلم حضرة بهاءالله باسمه شخصياً. فأحسست عند قراءتي للوح بموجة من الحماس تطغي على شعوري جعلتني كشعلة من نار بدرجة أنني ولحد الآن وبعد مضيّ خمسين عاماً، أشعر بتلك المتعة وذلك السرور الروحاني. ومع كبر سني وضعف حواسي في هذا الوقت، الا ان مجرد التفكير في تلك الأوقات العظيمة يوقد روحي وينير مصباح قلبي.

التفت الى جناب منير أسأله ان كان سيّد محمد(15) هو الذي يساند أزل؟ أم ان أزل هو الذي يدعم سيّد محمد؟ أم اتحد الاثنان للتمرد ضد حضرة بهاءالله؟ فنهض جناب منير عند سماعه ذلك ليعانقني ويقبّلني، وقال: لقد أتحد أعداء حضرة بهاءالله جميعاً على شيء واحد، هو توحيد قواهم ضد حضرته، انهم يخدعون بعضهم البعض وينافقون لمجرد معارضته فقط.

لقد أعلن حضرة الباب في بشاراته عن ظهور حضرة بهاءالله كثيراً، وهيأ الناس تماماً للقائه خلال سنوات رسالته الست، ومهد لهم السبيل وزرع في قلوب البابيين بذور محبة وطاعة الموعود. وفي المقابل، خدم حضرة بهاءالله الأمر المبارك وثقّف اتباعه ورعاهم واحتضنهم بطريقة أدت في النهاية الى تعرّف تسعة وتسعون بالمائة منهم علية وتمييزه بما لديهم من بشارات حضرة الباب نحو (من يظهره الله). ولقد نشر حضرة بهاءالله بذور المعرفة والايمان وسقاها وحافظ عليها من أعمال الأعداء الشيطانية وخدمها بلطف وشجّعها على النمو بقوة أكثر. لذلك عندما حانت الساعة الالهية وأعلن عن رسالته المباركة وكشف عن مقامه الأطهر، التفتت اليه وتوجهت نحوه، قلوب وأرواح المؤمنين الحقيقيين، ولم يجدوا مانعاً يحجبهم عن بهاءه، سوى أنواره الساطعة، ولا عائقاً إلا اشراقاته العظيمة.

من أولئك المؤمنين الحقيقيين رجل يدعى نجف علي(16). سمعه من كان حاضراً وقت استشهاده وهو يحمد الله ويقول: "لقد عرفنا البهاء، ونحن نسرع لتقديم أرواحنا فداء له. انه منقذنا". لقد كان مسروراً جداً وهو يسرع الى نهايته بمنتهى الفرح والسرور. وعند وصوله الى مسرح الشهادة، التفت الى جلاّده وقال له بصوت عال وهو يقدم له كيس نقوده: "من عادة عرسان أهل مدينتنا تقديم أفخر الهدايا والثياب لصاحب الحصان الذي يحمل اليهم عروسهم ليلة زفافهم الى منزل الزوجية. وقد احتفظت في هذا الكيس ببعض القطع الذهبية لهذا اليوم. انه يوم سعادتي العظيمة. فأليك به". لقد أخذت حرارة نار محبة حضرة بهاءالله هذا المؤمن نحو نهايته بكامل الفرح والسرور.

وطلب مؤمن آخر من جلاّده وهو في طريقه الى مشهد الفداء، قطع وريد رقبته قبل الضربة الأخيرة. فوافق الجلاّد رغم غرابة طلب ضحيته معتقداً انه سيرتد عن ايمانه، ووضع نصل خنجره على رقبة العجوز وأحدث فيه جرحاً صغيراً. لكن الجلاّد تعجب كثيراً عندما شاهد ضحيته وهو يضم كلتا يديه تحت رقبته ليملأها من دمه ويلتفت نحو جموع المشاهدين ويخاطبهم: " أشهدوا عليّ يا ناس، انني أثبت أحقيّة هذا الدين بدمي هذا ".

* * *

مررت بمدينة قزوين وأنا في طريقي الى أدرنة قبل عدة أيام من حلول عيد النيروز. وذهبت الى منزل ميرزا محمد علي كدخدا - وكان من شخصيات المنطقة المعروفين - حيث قابلت بعض الأحباء هناك. فحدّثني مضيفي بما يلي:-

"كنت قبل ايماني درويشاً من اتباع الشيخ الصوفي ميرزا كوجك شيرازي أحد الذين قابلوا حضرة الطاهرة وأعجبوا كثيرا بغزارة علمها وجرأتها وقوة ايمانها وروحانيتها". 0

وحدث ذات يوم ان سألت أستاذي عن رأيه في حضرة الباب ودعوته. فأجابني:-

"ان السيد الباب كتب تفسيراً فريداً لسورة الكوثر لا يفوقه أي تفسير آخر. وعندما كان يمسك بقلمه لا يستطيع أحد ان يدانيه في سرعة كتابته وجمال خطه، لا في الماضي ولا في الحاضر. لكنه - مع الأسف الشديد - لم يتتلمذ او يتعلم على يد أحد من شيوخ الصوفية".

أحزنني جوابه وحيّرني في نفس الوقت، وكررته في عقلي وذهني، وقلّبته عدة مرات أتأمل وأتعمق معانيه. اذ كيف لايجرأ أحد على مجارات قلمه؟ وكيف يجب ان يكون تلميذاً لأحد شيوخ الصوفية من أمثاله؟ يالغرابة ذلك؟! والحقيقة ان جوابه هذا كان السبب في ايماني واعتناقي أمر حضرة الباب.

* * *

قابلت في زنجان كلاً من أبا بصير وسّيد أشرف وملاّ ابراهيم. وكان الأخير من قرى اصفهان وذا قلب نوراني عانى في قريته كثيراً وأجبره أهلها على ترك منزله وعائلته وأقربائه والبحث له عن ملجأ ومأوى في هذه المناطق النائية من ايران. وكان قبل مغادرته القرية نزيل أحد السجون، ولما لم يكن يملك ما يستطيع به تلبية طلبات السجّانين من رشاوى وأتاوات ليزودوه بضروريات الحياة. اقترح عليهم تقديم خدماته داخل مبنى السجن كبديل لذلك. وتوجه بعد اطلاق سراحه الى قريته لبيع بيته وممتكاته فيها للحصول على بعض المال، لكنه فوجيء باستيلاء أقربائه على كل ما يملكه، مما اضطره لترك كل شيء والسفر بعيداً نحو الشمال. كانت متعة وسعادة هذا الرجل في العمل واقتسام أجره مع الفقراء مناصفة. ووافق على مرافقتي لزيارة مدينة أدرنة وحدد لي مدينة تبريز نقطة للّقاء.

رافقه في سفره الى هناك درويشان تظاهرا بالايمان والسفر الى أدرنة لنفس غايته، فحازا بهذه الطريقة على ثقته، لكنهما اغتنما أول فرصة أتيحت لهما خلال الطريق وسرقا كل ما معه وهربا. فوصل ملاّ ابراهيم الى تبريز خال الوفاض تماما - ورغم ذلك - صمّم على متابعة رحلته معي.

* * *

مرّت في خاطري وأنا في طريقي الى أدرنة، العديد من الذكريات والافكار ومن ضمنها ما تعلمته في طفولتي عن كيفية لقاء المظهر الالهي والتشرف بمحضره، فهو بمثابة جنة الله على الأرض. ولقد أتيحت لي - بفضل الله - فرصة خوض تلك التجربة شخصياً.

كذلك كان لي شرف لقاء وحوار الحاج سيد جواد كربلائي. اذ تشّرف هذا الرجل العظيم بلقاء وزمالة الشيخ أحمد والسيد كاظم، وهو من أوائل المؤمنين بحضرة الباب

الذي عيّنه أحد مرايا شريعة البيان. ثم اعتنق أمر حضرة بهاءالله وسكن بقربه في فترة وجوده في بغداد.

ذات يوم، وبينما كنت جالساً مع عدد من الأصحاب، طلب أحد الأزليين من سيد جواد، وصف وجه حضرة الباب. فأجابه على الفور: "أنه فوق الوصف في اللطافة والجمال، هل سمعت بجمال سيدنا يوسف(17)، ان هذا هو ما أعنيه". وحتى لا يعتقد الحاضرون ان سّيد جواد أزلياً، سألته فوراً عن حضرة بهاءالله، فأجاب: "اعلم وتأكد ان أي شخص - صديقاً كان أم عدو - يدعي انه استطاع النظر مباشرة في عينيه، فهو مدع أفّاك. لقد حاولت ذلك بنفسي مراراً وتكراراً، لكن جميع محاولاتي بائت بالفشل. ان الدهشة والانبهار تصيب الأصحاب في محضره تماماً فينسون العالم وما فيه. قل لي هل يستطيع شخص ما التحديق في قرص الشمس؟".

لم أدرك حقيقة معاني كلمات سيد جواد الا خلال الشهور السبعة التي قضيتها في أدرنة، وكذلك خلال زيارتي لحضرة بهاءالله في عكاء بعد خمسة عشر عاما. فكثيراً ما حاولت آنذاك معرفة لون تاج رأسه المبارك(18)، لكنني كنت أنسى ذلك كلما دخلت محضره. وذات يوم، وعندما كان يتناول طعام الغداء داخل غرفة صغيرة في حديقة الرضوان، يحيط به عدد من الأصحاب التفوا حوله في صفوف داخل الغرفة وخارجها، استطعت ومن خلف ذلك الحشد من المؤمنين رؤية لون تاجه المبارك. لقد كان أخضر اللون.

ان ما يحدث لروحي وقلبي في ساحة محضره المبارك، شعور داخلي غريب وعجيب فوق الوصف وأبعد من حدود الكلمات.

سألني ذات مرة أحد ملاوات اصفهان: "ماذا شاهدت وأنت في محضر حضرة بهاءالله؟"

فأجبته، أنني أتوقع خلال اللقاء رؤية جميع أنواع المعجزات. ادخل محضره وفي ذهني العديد من الأسئلة والاستفسارات. لكن حلاوة لقائه تقلل من شأنها جميعاً. ان لقاءه يمنحني ماءً عذباً يطفيء ظمأي وعطشي ويعطيني حياة حقيقية.

فسألني المّلا مرة أخرى: "ماذا رأيت؟"

قلت: رأيت هيئة انسان، لكن جميع سكناته وحركاته وخطواته كانت معجزة بالنسبة لي. لقد ملأ مني البصر، لا شبيه له على الأرض أبدا، انه مصدر الالهامات الالهية.

* * *

كان الحاج محمد باقر من أشهر تجار مدينة قزوين. لم يشتهر هذا الرجل بتجارته فقط بل وفي خدماته للأمر المبارك والتي يثني عليها جميع المؤمنين. أرسل ذات مرة رسالة الى حضرة بهاءالله يسأله فيها الانعام عليه بنعمة الثروة والغنى ليستطيع خدمة الأمر المبارك بشكل أفضل. فأجابه حضرته بعد أن حذّره من ان يحول نجاحه المادي بينه وبين خالقه. بأن أبواب الثروة والمال ستفتح عليه من جميع الجهات.

كما التفت حضرة بهاءالله - في نفس الوقت - الى الموجودين بمحضره ليخبرهم ان محمد باقر سيغرق بالثروة والمال، الا ان نجاحه المادي سيحجب عن عينيه حقيقة الوجود الى درجة أنه سيدير ظهره للأمر المبارك ويتنكر حتى لخالقه. وسيعاني من خسارة مالية كبيرة في تجارته، فيندم ويتوب لربه. فيبدل الله خسارته ربحاً ويعوّضه خيراً بسبب توبته وندمه ويصبح من كبار تجار مدينتي استنبول وتبريز. لكنه سيعود ويصبح أكثر غروراً من السابق وينكر الأمر المبارك مرة ثانية، وهنا ستذهب ثروته الى الأبد ولن يتمكن من التجارة بعد ذلك ويمسي فقيراً معدماً. ثم يعود للتوبة مرة ثانية. الا انه يبقى فقيراً حتى نهاية حياته، وسيقنع بما قدّر له ويخدم الأمر ويجني نجاحاً عظيماً في خدمته. وفي نهاية هذا التصريح العجيب التفت حضرته اليّ وأمرني بتذكّر هذه الاحداث التي هي في عالم الغيب الآن.

بعد فترة، اعتقل شقيق محمد باقر وأدخل السجن بسبب ايمانه. فدفع محمد باقر ثروة كبيرة لاطلاق سراح أخيه. ثم توجه بعدها الى استنبول وبدأ فور وصوله بالتقرب من حكومة السلطان والسفير الايراني، راجياً اعتباره مسلماً حقيقياً.

وفوراً، أشار حضرة بهاءالله لهذه الحادثة على انها نقطة البداية لسلسلة الأحداث التي ذكرها من قبل.

ذهبت الى استنبول وسكنت فيها لمدة أربعة عشر شهراً. وهناك علمت ان محمد باقر اشترى كمية كبيرة من القطن. وفجأة وبدون سابق انذار هبطت اسعاره بدرجة كبيرة، وعلى ذلك فقد صاحبنا ثروته وغرق في الديون تماماً. فتذكّر ربه وهو في تلك الظروف الصعبة وكتب التماساً لحضرة بهاءالله يرجوه المساعدة. فأجابه حضرته مؤكداً له استعادته لثروته مستقبلاً.

وعلمت عندما كنت في مصر ان اسعار القطن ارتفعت بشدة، فتضاعفت ثروته من جديد عشرات المرات. ورغم انه امتحن من قبل وفشل، الا انه سقط في فخ الطمع ثانية وأخفق في معرفة ربه المعطي الكريم. فكتب له حضرة بهاءالله ثانية لوحاً يحذره فيه من خطر الاغراءآت المادية، وحثّه على الثبات في طريق الله وشكر نعمته. الا ان محمد باقر غفل وتنكّر لله مرة أخرى.

وعندما التقيت به بعد عدة سنوات في تبريز، أخبرني بما حصل له، قال:- "بعد استلامي اللوح المبارك، بدى لي كما لو ان مسامير غرفتي وستائر جدرانها لها آذان تصغي بها وتطيع. فلقد ضاعت وتبددت ثرواتي من بين يدي الواحدة تلو الأخرى، وعدت فقيراً معدماً. وبذلك أجبرت على ترك استنبول والعودة الى تبريز حيث أسكن الآن في هذا البيت وهو من املاك زوجتي، وها أنا أرتدي ملابساً من صنع أولادي".

* * *

كتب أزل رسالة الى حاكم أدرنة يشكو فيها حضرة بهاءالله، وكانت غايته منها خلق المزيد من الوشايات ضد حضرته ومحاولة دفعه الى وضع صعب وميؤوس. لكن، ولمعرفة الحاكم المسبقة لشخص حضرة بهاءالله، حمل الرسالة وتوجه الى بيت حضرته طالباً منه النصح والارشاد. فأجابه جمال القدم: "أطلب منه الحضور لمقابلتي. فإن حضر. فان كل ما سيقوله صحيح".

طلب الحاكم من أزل الذهاب الى بيت حضرة بهاء الله لمقابلته. لكنه أجاب على هذا الطلب البسيط، بقوله: "نحن لا ندخل بيوت بعض. كما ان بهاءالله لن يدخل بيت الحاكم". في النهاية، أختير جامع السلطان سليم الكبير مكاناً للّقاء بين حضرة بهاء الله وأزل.

في صباح يوم الجمعة، ظهر حضرة بهاءالله متوجهاً نحو جامع السلطان سليم. فغص الشارع وازدحم بالناس المحتشدين على جانبيه لدرجة ان حركة المرور تعطلت ووقفوا في خشوع واحترام لتلقي بركاته وهم يأملون بنظرة خاطفة منه. ورفع الناس جميعاً أصواتهم بالتحية والثناء، وحاول بعضهم الاقتراب منه والوصول اليه، بينما سجد في طريقه البعض الآخر راغبين تقبيل أقدامه. وراح الواقفون على الجانبين يتدافعون برفق ومحبة لفسح الطريق لمروره باحترام وسرور عظيمين. ورداً من حضرته على هذا التعظيم وهذه التحية، كان حضرته يرفع يده مرة بعد أخرى لتحيتهم وشكرهم، وهو يردد: "مرحباً.. مرحباً.. بارك الله فيكم".

وحال دخول حضرة بهاءالله الى الجامع، قطع الخطيب خطبته وهو فوق منبره المرتفع بين جموع المحتشدين ولاذ بالصمت - إما بارادة منه، أو لأنه نسي ما كان يقول - وبعد ان أتخذ حضرته مجلساً له بين الناس، أشار الى الرجل بمواصلة خطبته.

ومضى الوقت، والجميع يتوقعون حضور أزل. لكنه لم يحضر مما أثار تعجبهم الشديد.

اعتادت مجموعة من الدراويش في تلك الأنحاء الاجتماع صبيحة كل يوم جمعة لترتيل اشعار مثنوي وترديد أسماء الله الحسنى، وذلك بتكرارهم عبارة: "الله هو! ياالله!". وهكذا وعلى هذا المنوال ومع أصوات الموسيقى والطبول، يغني ويغني المتعبدون، ويرقصون ويرقصون ويدورون ويلفون، ويزيدون من سرعتهم شيئاً فشيئاً حتى تغمرهم نشوة ذكر الله وتسكرهم، فينجذبوا لعظمة الله وسلطانه.

عندما غادر حضرة بهاءالله الجامع عائداً الى بيته صباح تلك الجمعة، وصل سمعه من بعيد صوت ترتيل الدراويش وغنائهم. فالتفت الى من في معيته متفضلاً: (يحتاج "مولانا" جلال الدين لزيارة من عندنا)(19). فوجد الحاكم وموظفيه وأعيان المدينة فرصة عظيمة وفريدة لمرافقة حضرته.

وخلال المسير، ترك العمدة وشيخ الاسلام وبقية العلماء، مسافة لا تقل عن خمس خطوات بينهم وبينه. لكنه كان يقف بين الفيّنة والأخرى ليسألهم التقدم والمسير بجانبه. الا ان جوابهم جميعاً كان الثبات في أماكنهم وتحيته بطريقتهم الخاصة، بوضع أيديهم على صدورهم واحناء رؤوسهم باحترام وتقدير تام.

وعلى هذه الحال، دخل الموكب خلف حضرته الى داخل التكية(20) في اللحظة التي كان فيها الدراويش في قمة صخبهم، ودورانهم السريع وموسيقاهم على أشدها. وفجأة 00 وحال دخول حضرة بهاءالله المكان، انقطع الضجيج وتوقف الجميع صامتين تماماً. فتقدم حضرته واتخذ له مجلساً، ثم وبحركة جليلة من يده، أشار الى مرافقيه بالجلوس. وبعد أن جلس الجميع، أعطى الأذن للدراويش بتكملة فعالياتهم من جديد.

وفي ليلة ذلك اليوم العظيم، كان لي شرف المثول بين يديه، فتفضل فيما معناه: "ان الخطيب نسيّ خطبته ساعة دخولنا الجامع، وتوقف الدراويش رهبة غير قادرين على الاستمرار في غنائهم ودورانهم لحظة دخولنا تكيتهم".

يعتقد الناس ان مثل هذه الأحداث هي معجزات، لأنهم شبّوا وترعرعوا في حجب من التخيلات والأوهام، بينما لله ورسله عوالم فوق تصور البشر وادراكاتهم.

لقد سمعت حضرته في أدرنة وفي الأرض الأقدس وهو يتكلم عن أحداث حياته الخاصة. وغالباً ما أشار الى أنه لو تفكّر البشر وأمعنوا النظر في حياة حضرة الباب وسجنه وأسره وشهادته وكتاباته. لأدركوا حتماً أي نوع من الهبات الالهية وهب هذا العالم. ولكن تدابير الله بقيت دائماً بعيدة عن ادراكات البشر خلال حياته المفعمة بتلك الأحداث.

ولو تفكّر أي شخص في حياة حضرة بهاءالله وما كابده من سجن ونفي واضطهاد، فسيدرك تمام الادراك بأن قوة أعداء الأمر المبارك الجبارة وجبروتها وصنوف أسلحتهم وبراعة تشكيلاتهم الحربية وعلى رأسها الحكّام والملوك، عادت وانقلبت جميعها لتكّون جيشاً ساعد وساهم في تقدم وانتشار الأمر الالهي وسيادته.

* * *

أسرتني قوة وعظمة كتابات حضرة الباب عندما اطلعت عليها لأول مرة خلال أيام الأمر المبارك الاولى في مدينة اصفهان. وبدت لي كلماتها وكأنها صف من اللؤلؤ. وكانت براهين الأحباء واثباتاتهم شاملة بحيث أشعر بعجز أي فرد على نكران الحقيقة عند الاستماع اليهم. لكنني وعند خلوتي الى نفسي، كانت تهاجمني الشكوك وأصبح هدفاً للأفكار والتخيلات التافهة والوساوس الشيطانية، وتسيطر علي الافكار القديمة وما تعلمته وقرأته، حيث تزلزل كياني وتغمرني ببحر من الظنون والاوهام. وفي الحقيقة، ان عملية اجتيازي فترة الامتحان هذه كانت صعبة جداً. ولا أحد يعلم الا الله بعدد ساعات بكائي الطويلة وبمقدار كربتي. فلقد قضيت الليالي الطوال ساهراً بدون راحة ولا هناء. وكان انشغال فكري الشديد في معضلتي الروحانية ينسيني في بعض الأحيان حتى تناول الطعام. ولعدة مرات نفضت عني تلك الوساوس الشيطانية

واعترفت بايماني الثابت، ولكني كنت أعود في كل مرة للتذبذب والاهتزاز عند أقل فكرة مخالفة.

ذات ليلة، رأيت في المنام منادياً ينادي في اسواق مدينة اصفهان ويعلن للناس عن ظهور سيدنا محمد(ص) ويدعوهم لزيارته والفوز بلقاءه. قائلا: "ان نظرة واحدة لوجهه الكريم أكثر قيمة من خدمة هذا العالم والعالم الآخر". فهرعت الى البيت المقصود حال سماعي قول الرجل، وارتميت عند أقدام سيدنا محمد(ص) فور دخولي المكان. فرفعني حضرته اليه بمحبة فائقة، وتفضل: "لا يمكن لأحد الأدعاء، ان غاية حضوره الى هنا هي من أجل الله، ومن أجل الدخول في محضر مولاه. الا عندما يقف بثبات في وجه جموع الأعداء وسيوفهم المسلولة بسبب اعتناقه هذا الأمر المبارك. وبغير ذلك لايمكنه القول ان غايته هي البحث عن الحق".

صحوت من نومي ووجدت نفسي في حالة من الفرح والثبات، وأدركت في تلك اللحظة سرّ وسبب معاناة اتباع الرسل. وقلت في نفسي - بعد ان زجرتها مرة بعد اخرى: "لقد قرأت معظم آثار حضرة الباب الرائعة. ولكني في النهاية وصلت للأيمان واليقين عن طريق رؤيا...!"

اتفق ان زرت مدينة أدرنة ومكثت فيها حوالي سبعة شهور بعد مرور أربعة عشر عاما على مشاهدتي تلك الرؤيا. وذات ليلة، وكنت جالساً في غرفة الشاي بصحبة أقا محمد قلي، أحسست برغبة شديدة للمثول في محضر حضرة بهاءالله حتى ولو لبرهة وجيزة. لكنني وبسبب تأخر الوقت لم أملك الشجاعة الكافية لطلب ذلك. فجأة، انفتح باب الغرفة وظهر حضرة عبدالبهاء ليأمرني باللحاق به. وعند مغادرتي المكان رأيت حضرة بهاءالله يمشي فوق سطح البيت بينما وقف بعض الأصحاب وهم يستمعون بخشوع لبياناته.

ارتميت عند اقدامه حال دخولي محضره. فرفعني بمحبة ولطف، وتفضل: "لا يمكن لأحد الأدعاء ان غاية حضوره الى هنا هي من أجل الله ومن أجل الدخول في محضر مولاه. الا عندما يقف بثبات في وجه جموع الأعداء وسيوفهم المسلولة بسبب اعتناقه هذا الأمر المبارك. وبغير ذلك لايمكنه القول ان غايته هي البحث عن الحق".

ليس في نيتي أدنى رغبة لسرد احدى المعجزات من خلال كتابتي لهذه السطور. لكني أردت ذكر حقيقة وقعت بالفعل. اذ ان مقدرة ادراكات البشر أشبه برجل عاجز أو كسيح أمام عقول رسل الله التي تشبه في سرعة تحركها سرعة تحرك الضوء في الفضاء. فكيف يمكن التقاء هاتين القوتين؟

* * *

دار خلال تلك الليلة حديث حول موضوع مغادرتي أدرنة. فأرسل لي حضرة بهاءالله يستفهم عن رغبتي في البقاء أم الرحيل. واذا كان الرحيل، فالى أين؟ ومتى؟ فأسرعت لحضرة المحبوب (عبدالبهاء) أتوسل اليه ان لا يتركني لخططي ورغباتي وأفكاري. وقلت له: لتكن رغبته هي النافذة، ليأمرني بالذهاب حيث يشاء، وليفعل ما يريد. أنا رجل وحيد ورغباتي بسيطة ولست مسؤولا عن اعالة أحد.

فأستجيب لرجائي وجائتني التعليمات بالذهاب الى استنبول للاستقرار هناك والقيام بشرف استلام وتسليم الرسائل والألواح بانتظام حسب عناوينها، وتجهيز متطلبات آل البيت المبارك، والقيام على شرف لقاء ومساعدة الاحباء خلال ذهابهم وأيابهم لزيارة أدرنة. حيث كان عليهم تمضية عدة أيام في استنبول لتدبير مستلزمات بقية رحلتهم، او الانتظار لورود موافقة حضرة بهاءالله على توجههم لزيارة محضره. كما كان عليهم المكوث معنا في استنبول لعدة أيام أخر وهم في طريق العودة الى ديارهم.

كان رفيقي في استنبول هو ميرزا حسين. أما متعتي وسلوتي هناك فكانت في امتلاكي لبعض الألواح التي احضرتها معي والمكتوبة بخط يد حضرة المولى وجناب ميرزا موسى (أقاي كليم)(21).

ياله من زمن رائع.. زماننا..!

اعتاد جناب كليم الكتابة الينا بانتظام وتزويدنا بالأخبار والبشارات عن حضرة بهاءالله. بينما كان آقا محمد علي يكتب لنا عن احتياجات البيت المبارك ومتطلباته. وذات مرة طلب مني شراء كمية من الشاي، فاشتريت بعضاً منه وأرسلته اليه، لكنه لم يستحسن نوعيته وكتب لي رسالة لطيفة جداً، أشار فيها بوجوب الاعتناء والانتباه عند شراء المواد، لأنها تخص العائلة المباركة. ولصغر سني وغروري وتكبري، أغضبتني نصيحته. فكتبت له بتهور رسالة جوابية خالية من اللطافة ولا تجدر أو تليق بمؤمن كتابتها.

لم يمض وقت طويل حتى استلمت من حضرة بهاءالله لوحاً لطيفاً يؤكد لي فيه قبوله جميع خدماتي ويعرب عن استحسانه ورضائه لها. فانتبهت لجسامة وعظم خطأي الذي ارتكبته بكتابتي تلك الرسالة حال زيارتي لذلك اللوح، وأدركت - وأنا الذي مكث سبعة شهور بقربه - ان هذا المظهر الالهي يؤدب نفوس الخاطئين بسياط الرحمة والمحبة. ويمحو أخطاؤنا ويغفر لنا ذنوبنا كي ينعم المخطئون بالتربية الالهية. اضافة الى ذلك، فان مغفرته ورحمته للناس تظهر لهم بالأمثلة اللطيفة الطريق الصحيح للتسامح والعبودية. وأدركت من خلال تلك الالتفاتة الكريمة مقدار تفاهة رسالتي السابقة تجاه أحد خّدام البيت المبارك. فتوجهت الى الله وأنا في حالة من الحزن والخوف العميقين، أنوح وأبكي وأصلي طلباً للمغفرة. ومرة أخرى، التجأت الى حضرة عبدالبهاء لطلب المعونة والمساعدة، ورجوته التوسط لي في طلب المغفرة والعفو من حضرة بهاءالله. وعندما وصلتني تعليمات وأوامر حضرة بهاءالله بضرورة السفر الى بلاد مصر، تأكدت من انعامه عليّ برداء الرحمة والعفو. فتوجهت الى أدرنة لزيارته مرة أخرى قبل سفري. وخلال لحظات لقائي الأخيرة، أكد لي بأنني سأتشرف برؤيته مرة أخرى في مستقبل الأيام.

* * *

قبل وصولي قارة أفريقيا، كتب الايرانيون في استنبول الى أصحابهم في مصر يحذرونهم من وصول (جبريل البابيين). فأدى ذلك - عند وصولي - الى هرع الكثير منهم الى مسكني لالقاء نظرة على هذا المخلوق البابي العجيب. وجاء بعضهم يحمل معه أسئلته واستفساراته: "لماذا تركت سيدنا محمد(ص) خاتم النبيين؟ لماذا تخليت عن رداء أأمتنا الأطهار؟ لماذا خرجت عن جماعة المسلمين؟ "

فاحترت ماذا أقول؟ وماذا أفعل؟ لقد تم نصحي باتخاذ الحيطة والحذر والانزواء والابتعاد عن مخالطة الآخرين قدر الامكان. لكنني أجد في ذلك الآن سببا لاتهامي بالجبن والخجل من عقيدتي، وأدركت حاجتي للرد والجواب - رغم معرفتي بعدم انتهاء مثل هذه الأسئلة - ولكي لا يعتقدوا أننا جهلة وناكري جميل، أجبتهم نحن لسنا هنا لخلق الفتنة والشقاق، فدعونا نبحث الموضوع على أساس من النيّة الحسنة والفهم المشترك. وقلت لهم، ان كل ما ذكرتموه من تهم وافتراءآت ضدنا لا أساس لها من الصحة أبداً. نحن نؤمن تماما بالقرآن كتاباً من الله وان طاعته واجبة وآياته هادية لطريق الحق، وفيه قرأنا قصة رجل آل فرعون الذي أخفى وكتم حقيقة ايمانه وقال "أتقتلون رجلا ان يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وان يك كاذباً فعليه كذبه وان يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم ان الله لا يهدي من هو مسرف كذاب"(22).

من المؤكد انكم سمعتم انه كان في ايران أحد السادة الأشراف الأتقياء من سلالة ونسل الرسول الكريم وعن عذابه الشديد ونفيه وسجنه رغم ورعه وتقواه. وعن

ارشاده ودعوته الناس الى الله ورسله في كل مراحل وأدوار حياته. وكيف أعدم في النهاية بنيران فرقة من الجنود. وسمعتم أيضا عن اضطهاد وتعذيب وقتل الآلاف من أتباعه. ان هؤلاء الذين تجرعوا كأس البلايا والذلة والموت لم يكونوا من عامة الناس، كان من بينهم المثقفون وكبار علماء الدين الأسلامي والفلاسفة والاشراف وشيوخ الطرق الاسلامية والسادة وشيوخ القبائل. والآن، ان أقل ما يجب على المسلمين عمله هو الاقتداء بسلوك رجل آل فرعون وتركي وشأني لأعيش بسلام.

قالوا: ماذا عسانا أن نفعل. لقد نطقنا بما أمرنا به رجال الدين بالضبط. انهم منعونا من الاقتراب أو الاتصال أو الكلام معك.

قلت لهم: هل سمعتم أو قرأتم من قبل ان رجال الدين رحبوا بمجيء رسول من الله وقالوا له أهلا وسهلا؟ فرسل الله محمد(ص) وعيسى وموسى عليهما السلام وجميع الأنبياء كانوا دائما هدفاً لأقسى أنواع العذاب من قبل أكثر الناس علما في زمانهم. ولقد قتل الامام الحسين(ع) بشهادة وقّعها وختمها أشهر وأرفع علماء عصره. أما بالنسبة لي، فأنا لا أعتبر نفسي مساوياً حتى لتراب أقدام أصغر فرد من أتباعهم وأنا لست هنا للتبليغ ولا أعتبر نفسي لائقا لمثل هذا المقام الرفيع.

في النهاية، اتضح لي ان هذا النقاش كان بداية طيبة. اذ صادقني الناس بعد ثلاثة أيام من العداء وجاءتني الدعوات لاستضافتي في بيوتهم. وكان منهم على سبيل المثال الحاج ميرزا جواد شيرازي الذي يعتبر من أشهر التجار الايرانيين وأكثرهم احتراماً. وسبق له ان تشرف بمشاهدة حضرة الباب في شيراز وأبدى نحوه الاعجاب والاحترام. وكان غالبا ما يبجله ويحترمه بقوله، "انه فريد في جماله ولطافته وروحانيته، لا يدانيه في نبله وكماله وقدسيته أحد، انه وحده فريد عصره وزمانه". كما كان هنالك الحاج محمد حسن كازروني الذي اعتنق الأمر المبارك فيما بعد بسّرية وكتمه عن غيره. والحاج محمد رافع المعروف بصدقه ونزاهته وأخلاقه وأدبه والحائز على احترام وثناء الجميع.

اعتاد الحاج أبو القاسم شيرازي زيارتي بشكل سري، وكان يعزو ذلك الى عدم ثقته بأبناء بلدته. لكنه لم يستطع اخفاء أمر ايمانه أكثر من ذلك، واخيراً وبعد بلوغه السبعين من العمر وصل الى اليقين وهتك كل الاستار والحجب التي كانت تحول بينه وبين محبوبه، وتغير وتبدل حاله كلياً وانقلب خوفه الى شجاعة وجرأة. وأرسل في طلب عائلته من شيراز للاقامة معه بعد ان عاش وحيداً، وأظهر من الصفات والأخلاق الحميدة ما أعجب أصدقاءه وأدهشهم. وغالبا ما سمع وهو يردد: "ان الثروة والمال ممدوحان اذا أنفقا في سبيل أمر الله، والا فسيكونا سبباً في التعاسة والخسارة الروحانية".

ذات يوم قرر السفر الى أدرنة لزيارة جمال القدم، وكان عليه التقدم للحصول على أوراق سفره من السفير الآيراني في استنبول الذي اكتشف سبب الزيارة الحقيقي مما زاد في صعوبة استخراجها. فلم يكن أمامه من سبيل سوى دفع مبلغ كبير من المال كرشوة للسفير لاستخراج أوراقه. وبعد جهد جهيد نجح في مسعاه وحصل على جواز سفر. وبعد عودته تغيّر حاله، فأصبح ثابتاً في ايمانه لا يهتز وكأنه خلق من جديد وبامكانه الوقوف في وجه العالم أجمع. وبعد أن كان كجبل قاس صامد لا يمكن زحزحته، أصبح كنهر يفيض ماءاً فراتاً عذباً، وأصبح نموذجا يقتدى به وبعلمه. ولم يستطع تحمل الصمت أكثر من ذلك وأصبحت قصص زيارته لأدرنة موضوعه المفضل يرددها على الدوام بنفس الفرح والنشاط.

* * *

من بين العديد من الأشخاص الذين شجعهم القنصل الايراني في مصر على الاختلاط بي والتظاهر بالايمان أمامي، رجلان أحدهما يدعى حسين حكاك والآخر ميرزا صفا. اعتاد هذين الرجلين الحضور الى غرفتي والتباحث معي باحترام عن الأمر لكسب

ثقتي، وادعى الأخير أنه تشرف بحضرة الباب في مدينة بوشهر، وأدرك منذ ذلك الحين منزلته المقدسة. لكنني علمت فيما بعد أنهما عميلان خاصان للقنصل الايراني، أرسلهما لمعرفة أسماء وعناوين جميع المؤمنين في مصر.

صادف ان اقتربت في تلك الأيام ذكرى استشهاد الامام علي (كرم الله وجهه) حيث يحتفل الشيعة بها كل عام. فأرسل القنصل دعوة لي لزيارته في تلك الليلة المقدسة وأخبرني أن جميع الايرانيين في المدينة سيعكفون على اداء الصلاة والدعاء هناك، حيث سيكون البيت خاليا من الخدم وباستطاعة الجميع مناقشة ما يختارونه من مواضيع.

علم صديق قديم لي - اعتاد زيارتي بين الحين والآخر - باستلامي لدعوة القنصل. ورغم انه كان ملحداً بكل الأديان وبجميع الرسل، الا انه نصحني وألح عليّ بعدم الاستجابة لدعوة القنصل، وحذرني من أنها وسيلة لاجتذابي الى مكتبه لأقع تحت سلطة ونفوذ علم دولته حتى يتمكن من القاء القبض عليّ واعتقالي. كما أشار الى عجز الحكومة المصرية تقديم المساعدة لي في تلك الحالة. ولو حصل وجاءوا للمساعدة فسيكون من السهل عليه عندئذ توجيه مختلف التهم والافتراءات ضدي، ولن يكون باستطاعة أحد نفي هذه التهم. ونبهني الى عدم وجود من يمتلك الجرأة الكافية للوقوف بجانبي لحمايتي والدفاع عني أمام مثل هذه المؤامرات والدسائس الشيطانية. ورغم استماعي لكلامه ونصائحه باهتمام، الا انني قررت قبول الدعوة وعدم رفضها، اذ أن رفضها، سيوحي للجميع بأنني خائف وجبان، وهذا ما لا أرتضي ان ينسب الى أتباع هذا الدين العظيم.

طمأنت نفسي بترديد وتذكر بعض الأجزاء من ألواح أنزلها حضرة بهاءالله باسمي، ينصحني فيها بتذكر نفيّه وسجنه ومصائبه، واتباع خطاه في طريق النجاة. كما ينصح فيها المؤمنين بقبول البلايا والرزايا وعدم القنوط في وجه الاضطهاد والثبات كالجبال والثقة بالله والبقاء في سعادة وفرح دائم.

بتذكري نصوص تلك الألواح أيقنت أن مصيري السجن لا محالة. ومع ذلك ذهبت برفقة ميرزا حسين شيرازي ودرويش حسن الى بيت القنصل. تصرفنا في بداية اللقاء حسب الأعراف المتداولة وحسب ما تمليه علينا عادات شعوبنا الاسلامية. لكننا بحلول صلاة العشاء اضطررنا للانسحاب باحترام معلنين، "ان صلاة الجماعة محرمّة علينا الا في صلاة الميت". ومن هنا بدأ النقاش حول موضوع الأمر المبارك، وأمضينا الليل بأكمله نناقش براهين الظهور ونحكي للحاضرين حكايات معاناة أبطال وشهداء هذا الأمر، لدرجة اننا رتّلنا لوحاً لحضرة بهاءالله. وفي تلك الأثناء كانت تبدو على وجه القنصل علامات الفرح والسرور، بل ودلائل الاقتناع في بعض الأحيان.

بظهور خيوط ضياء الفجر في الأفق، انسحب القنصل من مجلسنا، ثم بعث بعد قليل خادمه ليبلغ الحاضرين بضرورة مغادرتهم منزله. فأثارت هذه الرسالة الوقحة دهشة واستغراب الجميع، وتوجسنا الشر ونحن نترك منزله، اذ لم نستطع فهم وتفسير تناقض موقفيه حينما استقبلنا عند بداية اللقاء ببالغ المودة واللطف، ثم طرده لنا بهذه الطريقة عند نهايته، لدرجة أنه لم يكن حاضراً ساعة مغادرة الضيوف منزله.

رافقنا في طريق العودة - حسب أوامر القنصل - بعض من خدمه وهم يحملون فوانيساً بأيديهم لأنارة طرق وأزقة تلك المدينة الضيقة المظلمة. واكتشفنا خلال المسير، أنه بعد كل عدة خطوات يزداد عدد مرافقينا. وفجأة وبينما أنا منشغل في تفسير هذا الموقف الغريب، وجدنا أنفسنا محاطون بما لا يقل عن أربعين رجلا، بدت أشكالهم كذئاب كاسرة حقيقية. فانقضوا علينا وأشبعونا ضرباً ولكماً ورفساً وسحبونا الى السجن وقيدونا بالسلاسل والأغلال، واستمروا في ضربنا وشتمنا حتى الصباح. ثم تركونا وأغلقوا باب السجن خلفهم وانصرفوا.

التفت الى أصحابي فوجدتهم مضطربين بعض الشيء، ففعلت ما في وسعي لتحسين حالهم ورفع معنوياتهم الروحية.
ظل باب السجن مقفلا طوال ذلك اليوم. وعند المساء فتح لنخرج لتناول الطعام واداء الصلاة. عندها فقط علمنا أنهم ذهبوا الى غرفتي وسرقوا كل ما فيها من ملابس وحاجات وكتب، وأحضروا لي ملابساً قديمة لا تخصني لاستلمها بدلا من خاصتي، ثم قدموا لي ايصالا باستلامي لجميع حاجياتي وملابسي وممتلكاتي ما عدا الكتب التي دونت أسمائها فيه بوضوح لاعتزامهم تقديمها للسلطات المصرية ليؤكدوا امتلاكنا لكتابات خطيرة وغريبة. وعندما أخبرتهم أن هذه ليست ملابسي، كان ذلك كافيا لتفجير غضبهم ومعاودتهم الهجوم علينا، فعذبونا وضربونا أكثر من السابق. وفي النهاية أجبرونا على توقيع الوصولات المزورة فلم يكن هنالك من مفر أمامنا.
كانت فرصة نادرة للقنصل الايراني وموظفيه لتلفيق أنواع التهم والافتراءات ضدنا، ولم يدخروا جهدا لأذلالنا أمام حكام مصر وتوصيل أكاذيبهم المسمومة الى أعضاء الحكومة، وأظهروا أنفسهم كأصدقاء أوفياء ومريدين مخلصين للخديوي(23)، وأعلنوا وصرّحوا انهم يحاولون حماية المصريين من اجتياح البابيين لهم بشتى الوسائل، خاصة وانهم قاموا بمحاولة اعتداء على حياة شاه ايران من قبل(24). وتجاسروا في المجيء الى هنا بعد فشلهم هناك. ثم زادوا في تظاهرهم وادعاءاتهم فطالبوا بوجوب حماية السلطة والمواطنين من أمثالنا، وأكدوا على وجود أصدقاء وشركاء لنا بين شعوب مصر وتركيا وايران.
كان من الطبيعي أن يرتعب ويخاف الخديوي ويتأثر وهو في مثل تلك الحالة، اذ لم يكن له ولد يخلفه. ومع الأسف، أمسينا في وضع لا يسمح لنا بالدفاع عن أنفسنا ضد هذه التهم الملفقة. فحاولنا جاهدين توضيح الأمر لهم وافهامهم بأننا بهائيون وليس بابيون، والبهائيون مطيعون ومخلصون لحكوماتهم. لكنهم لم يسمحوا لنا ولا بكلمة واحدة للدفاع عن أنفسنا. وكان كل ذلك نتيجة حتمية لما قدمه موظفو وحاشية نظام ناصر الدين شاه في مصر - لأكثر من خمسين عاما - من تقارير كاذبة ملفقة للخديوي ضد البهائيين في مصر. فلم تكن لهم وظيفة أفضل من كيل التهم والأكاذيب، حتى انهم زعموا وادعوا زوراً اكتشافهم مخابيء أسلحة وذخائر في بيوت البابيين.
استدعيت ذات ليلة الى مجلس القنصل وكان بصحبته ضابط مصري، وبجانبهم وقفت مجموعة من الحرس على أهبة الاستعداد. كما كانت هنالك مجموعة كبيرة من الناس مكبلين بالقيود. وفجأة نهض القنصل من مكانه هائجاً وهو يصرخ ويصيح ويشير بأصبعه نحوي، "كل المشاكل سببها هذا الرجل، جبريلهم ونبيّهم". فأحاط بي على الفور عدد من الرجال حال سماعهم قوله وأوثقوا يدي خلف ظهري ووضعوا القيود في عنقي.
كان تأثير التهمة كبيراً على خديوي مصر، لدرجة أنه أرسل تعليماته الى القنصل باعتقال كل من ينتمي الى هذا الدين على الفور. لم يمض وقت طويل حتى أعتقل القنصل ثلاثمائة رجل من ديانات مختلفة، من بينهم عدداً من المواطنين المصريين. كما ألقي القبض على الحاج أبو القاسم. وعندما جاؤه بالأغلال، أخذها بيديه وقبّلها ووضعها حول عنقه وهو يقول: "بسم الله البهي الأبهى".
خطط القنصل لجمع كمية من الأموال تحت ذريعة تعذيب البابيين، فحبس الثلاثمائة رجل في غرفة كبيرة بجوار زنزانتي داخل القنصلية. وألزمهم لتخليص أنفسهم من هذا العذاب دفع الرشاوى له. وبهذه الطريقة وجدت أموالا كثيرة طريقها الى جيبه. واشترط على كل سجين يحين موعد اطلاق سراحه الحضور الى زنزانتي للبصق في وجهي ولعني وشتمي وضربي ولعن جميع شخصيات ديني المقدسة. ليستدل بهذه الطريقة انه ليس بابياً ويستحيل عليه بعد ذلك أن يكون بابياً. وقد خجل

بعض هؤلاء الضحايا من فعل ذلك ولم يستطيعوا رفع عيونهم في وجهي، لكن الجلادين كانوا يجبرونهم على كل ما يأمرونهم به.

قاسينا خلال الخمسة والاربعين يوما التي قضيناها داخل السجن، من العذاب ومن معاملة رجال وخدم القنصل الوحشية لنا، كما لو اننا عشنا داخل الجحيم. ومع كل ذلك، كانت روحي في غاية الفرح. ولو لم تكن بمثل ذلك السكون والاطمئنان الداخلي لما كان بامكاني احتمال أعمالهم الوحشية من سبّ ولعن وكفر بالمقدسات.

كنت سعيداً جداً في السجن، باستثناء ساعات الصباح الأولى التي يدخل خلالها الجلادون القساة غرفتنا بغرض ضربنا وشتمنا ولعننا. فتلك هي أسوأ ساعات حياتنا اليومية داخل السجن.

ذات يوم دعى القنصل الى بيته عدداً من الشخصيات الايرانية والارستقراطيين المصريين ، وأمر بأحضاري مقيداً الى مكان حفلتهم. فتذكرت لحظة ورودي المكان، ورود أسارى عائلة الامام الحسين الى ذلك الجمع الكبير داخل بيت حاكم الكوفة.

فجلست وخاطبت القنصل قبل أن يفتح فمه، بقولي: "على مدى تاريخ جميع الأديان أضطهد المؤمنون وعذبوا وسجنوا وأجبروا على تحمل عظيم المصائب. والكل يعلم أن البلايا من نصيب أحباب الله دائما، أما الكفرة فيتبعون طريق القسوة والظلم. أرجو أن تسأل جميع الحاضرين هنا، ماذا جنينا وفعلنا لنقاسي مثل هذا الظلم والاذلال. تذكّر تحذير القرآن "ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا..." ان واجبك يقضي عليك بالتحري والبحث عن الحقائق. هل يمكنك أن تخبرنا عن الشريعة السماوية التي تحلل لك ما عاملتنا به؟ لقد أعطيت فرصة الكلام للمدعي فقط ولم تمنح المتهمين فرصة فتح فمهم لتوضيح موقفهم قط".

وهكذا تكلمت بقوة وقدرة اضطر أمامها القنصل الى اصدار أمره للحرس باعادتي الى زنزانتي.

* * *

وصلت ذات يوم الى مصر مجموعة من الحجاج الايرانيين وهم في طريقهم الى مكة. ولكي يظهر القنصل أمامهم مقدار قوته ورجولته ودرجة خدمته لدينه ودولته. دعاهم جميعاً الى زنزانتي، وانهال عليّ بالضرب بخيزرانة في يده حال دخوله واياهم. وأخذ يصرخ ويصيح: "قل الحقيقة، ما هو اسمك "؟

أجبته: حيدر علي.

فاعترض وقال: لا! اذكر أسمائك الأخرى، مثل "جبريل البابين" و "كاتب الوحي" و "الأمام الأول".

اجبتة: انا لم أدع مثل هذا قط. بل ان بعضهم أتهمني بذلك.

فاجاب ساخراً: نعم!

قلت على الفور: حسناً، اذن قد يكون الشيطان، فكل من ينقل الأكاذيب ويحرض الناس على الظلم ليس الا شيطاناً، فهو يأتي الناس دائما بأشكال تشتبه عليهم.

وهنا بدأ يضربني مرة أخرى ويقول: "ألديك الجرأة الكافية للأفتراء حتى على السفير شخصياً! "

بعد ان خرج الجميع، جاؤوا برجل ليتهمني بالسرقة وبوجوب اعادة ما اغتصبته من ممتلكات أخيه اليه. وعندما ذكر لي أسم أخيه بعد ان سألته عنه، أجبته انني لا أعرفه ولم أسمع به من قبل. وباستمرار النقاش بيننا، بدأ الموجودون بالخروج واحداً تلو الآخر، ولم يمض وقت طويل حتى بقينا لوحدنا. وحالما أدرك الرجل خلوتنا ووحدتنا، تقدم مني واحتضنني وعانقني، وقال: "إسمي عبد الله، وأنا من نجف آباد، كنت في محضر الجمال المبارك وأنا الآن في طريقي الى مكة. لقد سمعت عن اعتقالك ومصادرة ممتلكاتك ففكرت بالحضور اليك واعطائك قليلا من المال. وأكمل قوله - بعد ان سلمني بعض المال - لم استطع الدخول الى هنا الا باختلاق بعض الاعذار، لذلك

اخبرت القنصل باغتصاب سجين له بعض ممتلكات أخي. والآن بعد ان رأيتك لا يهمني ماذا سيحدث لي وسأكون شاكراً لو احتجزني القنصل معك هنا في هذه الزنزانة، وان سمح لي بالذهاب فسأكون شاكراً لله كثيراً.

عبد الله هذا هو نفس الرجل الذي ذهب الى جده وقابل المرشد الصوفي الحاج ميرزا صفا وعمل لديه خادماً، وهذا ما أدهش بعض الايرانيين الذين يعرفونه واستغربوا من استخدامه لهذا البابي المعروف كخادم ورفيق مقرب اليه.

ودار فيما بعد الحوار التالي بين ميرزا صفا وعبد الله:-

- سمعت انك كنت في أدرنة؟

- نعم. هذه هي الحقيقة، لقد كان لي شرف زيارة حضرة بهاءالله هناك. ان ظهر مني أي تقصير او خيانة تجاهك فلك كل الحق في اعتباري مقصراً ومستحقاً للعقاب. انك استأجرتني للعمل لديك، ولم تستأجر ضميري.

- ماذا رأيت هناك؟

- رأيت فيه وفي ظهوره كل ما سمعته عن رسل الله وديانات القبل.

- كيف يمكنك رؤية ما لم يستطع رؤيته المتعلمون والفلاسفة ومرشدي الطرق.

- لقد حدث الشيء نفسه في أيام الرسول محمد(ص). اذ أنكره الفلاسفة وكبار الفصحاء، واعتنق دينه الجهلة والعبيد والعوام.

- أحسنت! انت تحسن الجواب.

بعد هذا الحوار، أعطى الشيخ ميرزا صفا الى عبد الله حقوقه ومستحقاته وزاد عليها، ونصحه بمغادرة جده والتوجه الى مصر وعدم الذهاب الى المدينة المنورة. لكن عبد الله فكّر في نفسه، وقال: لقد قاسيت وعانيت الكثير، وأنا الآن في المكان الذي وطأته أقدام سيدنا محمد، وبامكاني رؤية ما شاهدته عيناه، فلماذا أمنع نفسي وأحرمها من كل هذه النعم؟

قرر عبد الله التوجه لأداء شعائر الحج كاملة. وبينما هو في المدينة، التقى مرة ثانية بميرزا صفا. وحال رؤيته خاطبه بقوله: طلبت منك المغادرة الى مصر وليس الى المدينة. فلماذا لم تفعل؟!

أجابه عبد الله: ان تقديم فروض الطاعة والولاء لمقامات سيدنا محمد (ص)، هي نوع من أنواع العبادة وأهم من طاعتك.

قال ميرزا صفا: أنت رجل شريف، وأريد استخدامك ثانية. لكني أود ان أنصحك في نفس الوقت. ان عقلاء الرجال لايطأون بأقدامهم الطرق المهجورة ولا يقربون سبل التحديات ولا يواجهون الأخطار مباشرة. انهم يختارون السبل الآمنة السهلة المليئة بالمدن والقرى الكثيرة. قد يكون السبيل الذي اخترته لنفسك واسعاً وجميلاً مع مرور الأيام والزمان، لكن ليس قبل مائتي عام. أما الآن فهو مليء بالأخطار وعليك تجنبه.

أجابه عبد الله: ان ما ذكرته صحيح تماماً، وعليك ان تعلم ان على امثالي السفر وسلوك تلك الطرق الخطرة وتخطي مصاعبها ومشاقها لتمهيدها لأمثالك من البشر.

فقال ميرزا صفا: كيف يمكنك ان تكون بمثل هذه الشجاعة والجسارة وسرعة البديهة في اجابتك؟

أجابه عبد الله: لقد أخبرنا الله تعالى على لسان سيدنا محمد(ص) في قرآنه الكريم، ان الذين يتمنون الموت، صادقون دائماً. ولا حاجة بهم للتأمل وانتقاء الأفكار في قول الحقيقة. فالرجل الصادق لا يتردد في قول الحق.

* * *

عهدوا بجماعة منّا الى مجموعة من الضباط المصريين لاصطحابنا الى جهة مجهولة. فزاد ذلك من سرور أحد الاصحاب وراح يتغنى ببيت من الشعر وهو مكبل في قيده:

لا يعترض أحد على ارادتك   فالأسود لا تُخْجِلُها القيود

وعندما سمع الناس ترتيلنا أشعار الفرح من شدة الأيمان والثبات، انفجر بعضهم في البكاء والبعض الآخر في الضحك. ولم ينزعوا عن معاصمنا القيود حتى وصلنا الى السجن الجديد، حيث أمضينا ليلتنا هناك.

عند الصباح، سألنا بقية السجناء عن ماهية تهمتنا. فأجبناهم اننا لا نعلم ما لفّقه القنصل من اتهامات لنا.

فتساءلوا: هل قتلتم أحداً؟ ان هذا السجن مخصص للقتلة والمجرمين فقط.

تمكنت في اليوم التالي من كتابة التماس باللغة العربية الى الضابط المصري المسؤول عن السجن على اعتبار ان تهمتنا هي ترك الدين الاسلامي وايجاد دين جديد وليس ارتكاب جريمة قتل. وذكرت فيها ايضا ان من أبسط قواعد العدل المطلوبة ان يقضي المتهم مدة محكوميته لجريمة او مخالفة ارتكبها. ونحن - وبسبب أحقاد القنصل الايراني ضدنا - فقد اتهمنا بايجاد دين جديد ونبذ تعاليم الاسلام، ومع ذلك فنحن في سجن للقتلة. ان تهمة خلق وايجاد دين جديد، لا يمكن نسبتها والصاقها بأي شخص، فمن كان كذلك يجب ان يكون على الأقل متعلما واسع الاطلاع ومحترما من قبل الناس. لذلك، فان اعتقالنا في سجن كهذا هو الظلم بعينه.

قرر الضابط بعد قراءة الالتماس نقلنا الى سجن منفصل بعد ان خشي من تأثيرنا على بقية السجناء. وحوّلنا الى غرفة جديدة فيها سجاد وبعض وسائل الراحة الاخرى. لكنه منعنا من الاختلاط ببقية السجناء. مضت عدة أيام على هذه الحال، واذا بالقنصل الايراني يحضر الى السجن بنفسه، ويزور غرفتنا الجديدة. فأدركنا من ساعتها ان الامور ستّدهور نحو الأسوأ. ولقد صدق حدسنا. فبينما نحن نيام بعد منتصف الليلة التاسعة من زيارته، اذا بالجنود يهاجموننا داخل الزنزانة، ويجعلونا في صف واحد ويوثقوا أيدينا خلف ظهورنا بقوة كبيرة الى درجة ان أثر مكان الحبال على يدي بقي يؤلمني طوال بقية حياتي. واقتادنا نحو خمسين جنديا مدججين بالسلاح في طريق صخري وعر مليء بالشوك والحسك، زاد من صعوبته ومشقته اعتلال صحتنا وقلّة تغذيتنا.

دخل معنا الجنود خلال الطريق في سؤال وجواب معنا، وشيئا فشيئا اكتشفوا عدم خطورتنا وانتفاء الحاجة لكل هذا العدد من الجنود لحراستنا، وشعروا بالأسف والندم لأجلنا بعد معرفتهم حقيقة أمرنا. فحرروا أيدينا بعد أن تورمت وسببت لنا آلاما مبرحة، وزادوا في كرمهم ولطفهم تجاهنا وسمحوا لنا بامتطاء خيولهم بالتناوب.

وباقترابنا من سجن "فم البحر" الشهير، أعاد الجنود تقيدنا وتركونا ننتظر خارج المدينة، وذهب عدد منهم ليبلغوا حاكمها بوصولنا. فجهز لنا الحاكم زنزانة داخل السجن وأمر بتقيدنا جميعاً بسلسلة واحدة وشدد على أن تكون حجرتنا مظلمة وأبوابها موصدة بالأقفال، وأمر بثقب الباب ومرر طرف السلسلة من خلال الثقب الى الخارج وأمر الحرس بامساكها دائما.

كان ظلام النهار داخل الزنزانة لا يختلف عن ظلام الليل شيئا. ونظراً لعدم حصولنا حتى على شمعة صغيرة لتبديد الظلام، قررنا ترتيل لوح الناقوس النازل من قلم حضرة بهاءالله بمناسبة بعثة حضرة الباب. عندما سمع الجنود أصوات حناجرنا الثمانية وهي منسجمة معاً في نغم واحد اعتقدوا اننا مجموعة من الدراويش نرتل كلمات ذكر الله. فجذب ذلك عطفهم نحونا وقدموا لنا مصباحاً وفكّوا قيودنا، ثم بدأوا يتركون باب زنزانتنا مفتوحا خلال ساعات النهار.

* * *

لم يمض وقت طويل، حتى أظهر لنا بجلاء سكان تلك المناطق من ضباط وتجار وكبار الشخصيات وغيرهم من مختلف الطبقات، محبتهم واحترامهم بدون استثناء، ورغبوا في لقائنا والتباحث معنا، وفعلوا كل ما في وسعهم لاسعادنا من خلال هداياهم

ومحبتهم الدائمة. بل ذهب البعض منهم أبعد من ذلك، إذ طلبوا منّا بعض النصوص من الأدعية الخاصة بتلبية الحاجات وحل المشاكل. وبذلك بقيت طوال مدة الخمسين يوما في سجني هناك منشغلا بكتابة الأدعية والمناجات والآيات التي تصرح بظهور حضرة الباب وحضرة بهاءالله.

ساعدتنا تلك الخمسين يوما على استرجاع قوتنا وطاقتنا وصحتنا، بعد عذاب الأيام الماضية، وشعرنا بغزارة وقوة الدماء تجري في عروقنا نتيجة الراحة وجودة الغذاء، وأحسسنا في كل لحظة منها بابتعادنا عن عالم الماديات وتقربنا الشديد من محبوب قلوبنا، لما نرتله من ألواح وأدعية، واستعدادنا للشهادة في سبيله في ذلك المكان بدلا من بيت القنصل الايراني.

اتضح فيما بعد أن كل ذلك كان مجرد أحلام وأماني. فقد جاءت الليلة التي حضر فيها الجنود لاعادتنا الى مصر. ولقد أثبت هؤلاء الجنود أنهم رحماء حقا، فلم يسببوا لنا أي مصاعب ولم يعذبوا أي فرد منّا خلال طريق العودة. بل على العكس، فقد سمحوا لنا بامتطاء الجمال والخيول وكل ما كان متوفرا، وتوقفوا في محطات على الطريق مرتين أو ثلاث لتناول الشاي والقهوة والراحة قبل اكمال سفرنا.

باقترابنا من المدينة، عاد الجنود لتقييدنا مرة ثانية، واعتذروا على ذلك بقولهم: " لدينا أوامر مشددة بتسليمكم مقيدين للسلطات". وهكذا، وبهذه الطريقة دخلنا أول أماكن النفي. فأخبرنا الضباط: " لقد جاؤا بكم الى هنا للتحقيق معكم". لكنهم، وبعد ستة أيام عادوا بنا مرة ثانية الى ذات السجن السابق، والى نفس السلاسل ومع نفس الحرس والضباط. وفي اليوم السادس عشر لوصولنا، أخذنا الجنود الى مجموعة من الحدادين والنجارين لصناعة وتركيب قيود وسلاسل لأرجلنا وأعناقنا. وثبت ساعتها أن عملية تركيب القيود هي أشد ألماً من أي شيء قاسيناه من قبل، فلم نستطع خلال وقت التركيب السيطرة على أنفسنا وانفجرنا في البكاء من شدة الألم، وبكى لبكائنا ومصيبتنا الجنود والحاضرون جميعاً، ولعن النجارون والحدادون مهنتهم التى أدت بهم الى تعذيب الأبرياء من الناس.

وبوضع أيدينا في "الدهق"(25) اكتملت عملية التركيب. فاكتشفنا ان سلاسل أقدامنا الثقيلة وقيود أعناقنا وأيدينا المرعبة تجعل من أقل حركة بسيطة عذاباً كبيراً لا يطاق. لذلك حاولنا تجنب تحريك سواعدنا قدر الامكان. لكننا عجزنا عن ذلك عند المسير، فلم يكن في استطاعتنا حمل سلاسل أقدامنا لتخفيف آلامها.

ان عملية صناعة الدهق والأغلال بدأت حوالي الساعة الثانية بعد الظهر وانتهت بعد الغروب بقليل. بعدها أخذونا الى أحد المراكب وسلمونا الى حوالي مائة ضابط وجندي. وهنا بدأنا نفهم نتائج تحريضات القنصل الشيطانية. لقد أرعب الحكومة المصرية وأخافها بشدة بحيث أصدرت أوامرها المشددة لملاحي السفينة التي ستقلنا بعدم تحميل البضائع التجارية، مخافة حضور الناس الى الميناء ورؤية مصيبتنا واحتمال اعتراضهم على معاملتنا بهذه الطريقة الوحشية. وكان الحرس خلال الطريق يسرعون الى دفعنا واخفائنا في غرفة المخازن ذات النوافذ المحكمة الاغلاق حال رسو سفينتنا عند السواحل.

* * *

لم نستبدل ملابسنا التي ارتديناها منذ شهور طوال فترة اعتقالنا. ولما لم يكن باستطاعتنا غسلها وتنظيفها بسبب قيودنا، أصبحت بالية وممزقة وقذرة بدرجة لا تحتمل.

ومع مرور الوقت وبالتدريج، رقّت قلوب الجنود نحونا، فاستلطفونا وقدموا لنا ثياب طويلة بيضاء، لكنهم - وبسبب أصفادنا - لم يستطيعوا خلع ملابسنا القديمة عن أجسادنا الا بتمزيقها، ثم غسلونا وحممونا بماء ساخن وألبسونا ثيابنا الطويلة الجديدة.

فشعرنا آنذاك بسعادة وراحة كبيرتين كما لو كنا مقبلين على الذهاب الى احتفال بيوم رأس السنة الجديدة.

اكتشفنا خلال الرحلة ان هنالك من أخبر الجنود أنني أستطيع التحكم بالأرواح والتأثير في المخلوقات الروحانية الغيبية. فجاءوا يطلبون مني كتابة التعاويذ لحمايتهم من تأثير أرواح الجن التي يؤمنون بوجودها تحت الأرض. وهكذا كتبت لهم كلما خطر في ذهني من ألواح أوردت فيها الأسم الأعظم(26) وأسماء بعض البهائيين بعد ان بدلت وغيرت مواقع حروف الكلمات، كما كتبت أحيانا أسماء هداياهم لنا مثل الجبن والتبغ والشاي والخبز والقمصان. لقد قصدت من كتابتي أسماء هذه الأشياء اظهار مقدار سعادتنا وقناعتنا لقارئها ونحن في الأسر.

صعد الى ظهر سفينتنا الحاكم العام للسودان جعفر باشا، فسألته بعد أن استدعاني للمثول أمامه، "ماهي تهمتنا؟". فأجاب: لينزل الله غضبه على قنصلكم، لقد خلق وأوجد الخوف والرعب في قلوب موظفي حكومتكم بحيث أصبحوا يخافونكم، لقد اتهمكم بتغيير وتبديل دينكم وكتابكم وشريعة الاسلام المقدسة. وقال انكم ارهابيون تحاولون اغتيال رؤساء الحكومات. لكن الواضح انكم من أهل الصراط(27) وليس لكم يد في السياسة. وفي نهاية اللقاء وعد بتوفير الراحة والمساعدة لنا قدر المستطاع.

لم نستقر في ذلك المكان أكثر من ثلاثة أيام، استبدل بعدها الحرس بغيرهم وجاؤا لنا بجمال لنركبها ونكمل سفرنا. لكن المشكلة كانت في كيفية امتطاءها ونحن مقيدين الى بعضنا البعض وأقدامنا مربوطة بالسلاسل ومعاصمنا بالأغلال. فاحتار الحرس في أمرنا وفيما سيفعلوه، وفي كيفية نقلنا الى المكان الجديد! أخيرا، أحضروا قطعا من القماش الأبيض الطويل المتين وربطوا أقدام وأيدي كل اثنين الى سرج بعير بحيث تدلى جسد كل واحد منّا على أحد جانبيه، ثم ربطوا أجسادنا المتدلية بقطع قماش أخرى الى أجساد الجمال ليمنعونا من الاهتزاز والحركة 0

ورغم ان الحرس أناخوا جمالهم وتوقفوا لخمس أو ست مرات خلال الطريق وسمحوا لنا خلالها بالراحة والتجمع، واعتذروا لنا بقولهم: "انه قد سبق لهم اصطحاب جماعات من اللصوص والمجرمين وهم مقيدين بالسلاسل الى السودان. لكنه كان على اللصوص قطع مسافة الطريق بأكملها سيرا على الأقدام. وبما ان الحاكم جعفر باشا أمرهم بالسماح لنا بالركوب، لذلك لم يجدوا طريقة أفضل من هذه لتنفيذ أمره". الا انه لا يمكن لأي انسان تصور عذاب ومشقة أشد وأفظع من عذاب تلك الرحلة أبداً 0

ومع كل الآم ومشاق تلك الرحلة وعظيم عذابها، الا انه لم يكن باستطاعتنا منع أنفسنا عن الضحك ونحن نرى أجسادنا متدلية من فوق ظهور الجمال. لقد كان منظرا مثيرا للضحك والسخرية بدرجة كبيرة.

دامت تلك الرحلة حوالي خمس أو ست ساعات، وصلنا بعدها الى ضفاف نهر النيل، فنقلونا الى ظهر سفينة أخرى أبحرت بنا لفترة ثم تركتنا في منطقة خاضعة لسلطة شيخ عربي ذا قلب رحيم. وبعد أن أوضحنا له ملابسات موقفنا وقضيتنا. طلبنا منه معاملتنا برحمة وشفقة أكبر. وبعد أن استمع الينا باهتمام واضح، أمر الجمّالة بتوفير مقاعد خشبية لجلوسنا تربط على ظهور الجمال، كما أمر بحمل ما يكفي من الطعام للجميع خلال الرحلة. اذ كان ما يزال علينا قطع مسافة طويلة من الطريق في بحار من رمال الصحراء لمدة اثنى عشر يوما أخرى. ويبدو ان لهذا الشيخ الكريم سابق معرفة بعذاب رحلتنا القادمة.

سلّمنا الحراس المصريون الى مجموعة من الحراس العرب من ذوي القلوب القاسية المتحجرة عديمي الأخلاق سريعي الغضب. فأعلنوا لنا صراحة حال استلامهم لنا، ان موضوع حياتنا وموتنا بات في أيديهم. ولا حاجة لي في شرح وذكر مالاقيناه منهم من معاملة وحشية خلال الطريق وماذا فعلوا بنا! ومع كل ذلك، لم يشتك أو

يتذمر أحد منّا خلال الرحلة ولو بكلمة واحدة تجنبا لغضبهم واثارتهم. ومع ان الشيخ العربي زوّد الجميع بما يكفي من الطعام، الا انهم كانوا يقدمون لنا جميعاً وجبة رجل واحد فقط ويستحوذون على باقي الطعام لأنفسهم. فأعادت معاملتهم الوحشية الى ذاكرتنا ما لاقيناه من عذاب كبير في بيت القنصل الايراني في مصر.

رغم كل ذلك، كنّا سعداء وباستطاعتنا خلق أسباب تضحكنا، فتبادلنا النكات حتى بخصوص حراسنا، وباللغة الفارسية - كي لا ينتبهوا الينا - وضحكنا عليهم من كل قلوبنا. وعندما وصلنا الى السودان في النهاية، حمدنا الله على سلامتنا وبقائنا على قيد الحياة.

* * *

اصطحبنا حراسنا الى سجن السودان، فاستلمنا السجّانون ووضعونا على الفور في زنزانة صغيرة مظلمة عفنة تكدس فيها الكثير من السجناء بحيث لم يكن باستطاعتنا التنفس أو الحركة. وكانت أقل ايماءة او حركة منهم تكفي لتفجير غضب السّجانين. فغمرنا الظلام والبعوض والقمل والبراغيث وكل أنواع القذارة والأوساخ. فاحترنا تماما فيما نحن فيه ولم ندر ماذا نفعل. أخيرا، استجمعت شجاعتي والتمست من أحد الحراس توصيل رسالة مني للضابط المسؤول. كنت محظوظاً جداً حينما وافق الحارس على اداء تلك الخدمة لأجلي، وعاد ليبلغني باستدعاء الضابط لي، واصطحبني اليه. وحال دخولي الى مكتب الضابط قلت له: أنا خطاط جيد وباستطاعتي عمل لوحات جميلة لكم ان زودتني - بعد موافقتكم - بورق وقلم وحبر.

بعد حصولي على المستلزمات المطلوبة خططت له لوحة "فوضت أمري لله"، ففرح بها كثيرا وقبلها مني كهدية. ومن ساعتها تبادلنا فيما بيننا المودة والاحترام. وفيما بعد أخبرته ان اثنين من زملائي خطّاطان ممتازان والاثنين الآخرين نقّاشان وواحد طبيب، ونحن على استعداد لاداء أي عمل تأمرنا به. فما كان منه الا أن أصدر أمره بنقلنا مع أغلالنا الى زنزانة أخرى. فأبهجنا هذا التحسن في أحوالنا.

وشيئا فشيئا توطدت علاقتنا بالضابط والحرس والسجناء، وكتبنا ونسخنا لهم العديد من الأدعية، استغرق عمل بعضها مدة اسبوعين. وقدمنا للسجّان الذي أوصل رسالتي الأولى الى الضابط كل ما استلمناه من هدايا، لكنه - مع كل ذلك - أبقانا مقيدين كل اثنين مع بعض. لا يمكن لأي انسان تصور ما لاقيناه من مصاعب ومشاكل من جراء التقييد بتلك الطريقة، انه الجحيم بعينه، خاصة عندما كان يحاول أحدنا غسل يديه أو وجهه أو اداء حاجته.

بعد أربعين يوما، اكتمل عدد السجناء المطلوب جمعهم. فجهزت سفينة جديدة لنقلنا الى سجن آخر في الخرطوم.

ان الكلمات لتعجز عن وصف بذاءة ورداءة ألفاظ رفاقنا السجناء. فكلماتهم الكريهة ولعناتهم وسبابهم وشتمهم وكلمات الكفر والتجديف كانت مطلقة ويستعملها الجميع بدون استثناء أو تحفظ دائما. كما ان هؤلاء المتعجرفون الوقحون والحيوانات الكاسرة، كانوا يتفاخرون بسرد قصص سرقاتهم وكيفية هروبهم وطرق ارتكابهم جرائمهم وشراستهم أمام بعضهم البعض، وكانوا ينظرون الينا بازدراء ويقولون: اننا نخجل من سفرنا معكم على ظهر سفينة واحدة. انظروا.. اننا فعلنا كل هذه الأشياء العظيمة، فماذا فعلتم أنتم؟ لا شيء.

كان على متن السفينة بعض النسوة السجينات أيضا، ورجل كفيف البصر لا يتوقف عن ترتيل وتلاوة آيات القرآن. ذات يوم، ادعت احداهن أن شخصا ما سرق مقاصهن. فهب الحرس ليفتشوا كل شيء ويبحثوا في كل مكان، ولكن دون جدوى. ولما لم يعثروا على ضالتهم بدأوا بضرب السجناء واحداً تلو الآخر في محاولة لدفعهم على البوح بمكان المقاص. فلاحظت عند ابتداء عملية البحث شحوب وجه الرجل الضرير وتغير لونه وقلقه. ولأجل تخليص الجميع من العذاب الذي نزل عليهم، أخبرت

الجنود بضرورة تفتيش الرجل الضرير أيضا. وعند تفتيشه عثروا على المقاص مخبأة في سرواله.

كان من المفروض أن لا تدوم رحلتنا أكثر من ستة أيام فقط، وقد خُزن لها من المؤن ما يكفي الجميع خلال الرحلة. لكن، ولعدم هبوب الرياح، بقينا على ظهر السفينة ستة وثلاثون يوما، نفذ خلالها الطعام، فراحوا يوزعون علينا طحين الذرة لنعجنه ونعمل منه خبزا. الا انه لم يكن كافيا، خاصة ونحن بصحبة مثل هؤلاء الأشرار الحاقدين.

ذات يوم، وبينما كانت سفينتنا ترسو قرب أحد السواحل. أخبرنا الحرس عن امكانية حصولنا على طعام من قرية تبعد عن الشاطيء مسيرة ساعتين على الأقدام. وعلى الرغم من اعتبار مثل تلك الرحلة الشاقة تحد كبير لعزائمنا وصبرنا، الا اننا قررنا خوض صعابها والشروع في المسير والحركة يدفعنا لذلك ما قاسيناه ونقاسيه من جوع رهيب. ورغم ثقل كل تلك القيود والأصفاد ومضي كل تلك الأيام الطويلة التي لم نذق خلالها طعاما سوى الماء، ورغم شدة نحول أجسامنا، الا اننا كنّا ننهض بصعوبة كبيرة بعد كل مرة نسقط فيها لنكمل المسير. أخيرا، وصلنا القرية بعد طول عذاب، وبمجرد بلوغنا أياها سقطنا فاقدي الوعي مغشياً علينا.

فرقّت ولانت قلوب الأهالي لحالنا وقدموا لنا قهوة حلوة مع عجينة مصنوعة من الطحين والماء. فاعتقدنا بلزوم طبخها، ولكننا علمنا انها مطبوخة وجاهزة للأكل. وعندما سألت أحدهم عن ماهيتها باللغة العربية، أجابني بأسلوب ساخر مضحك جعل جميع الحاضرين يضحكون لدرجة اننا نسينا معها حالتنا. ومع ذلك، كان ما يزال علينا العودة الى سفينتنا مشياً على الأقدام 000

أبحرت سفينتنا ببطيء ووصلت الى ميناء آخر، حيث مكثنا اثني عشر يوما، انتظرنا فيها هبوب الرياح المناسبة. ان بعض تلك الأيام كانت مريحة وجميلة نسبياً. وخلالها كتبنا الحجب والتعاويذ لسكان القرية المجاورة، فقدموا لنا مقابل ذلك مؤونة لبقية أيام رحلتنا. أخيراً وصلنا الى نهاية سفرتنا، مدينة الخرطوم.

* * *

كان جميع سجناء سجننا الجديد يخشون ترحيلهم الى سجن فاشيودة. فكلهم يعلم انه قبر للسجناء. جّوه كريه وموبوء تماما وسجناؤه محكوم عليهم بالأشغال الشاقة. وكان على السجناء المرحلين اليه الانتظار هنا في هذا المكان حتى يحين موعد ابحار السفينة القادمة الذي يتم كل ثلاثة أو أربعة شهور مرة واحدة. ووصل علمنا أيضا وجود سجن آخر قريب لا يقل سوءاً عن الأول اسمه "جب الرعب". وكنّا نسمع غريب الحكايات عن تلك الأماكن بقلوب هلعة يملؤها الرعب والخوف.

ومرة ثانية التقينا بالحاكم جعفر باشا. اذ أرسل في أثرنا عند أول وصوله وأخبرنا أنه سيفعل ما في وسعه من أجل راحتنا وسعادتنا. وأصدر أمره للضابط المسؤول بنقلنا الى السجن القريب وتبديل أغلالنا الثقيلة بنوع آخر أخف منها، واستثنائنا من العمل، وأمر بعدم التحرش بنا وبعزلنا عن بقية السجناء. وفي نهاية لقائنا معه، قال: "ان الحب ينبعث من صميم القلب. وعلى الرجل الحكيم اخفاء محبته عندما يرى أمثاله يعتقلون وتصادر أملاكهم ويقذفون في غياهب السجون. على المحب اخفاء مشاعره ساعة الخطر".

لم أجبه ساعتها بشيء. لكنني عندما عدت الى زنزانتي خططت له لوحة كتبت عليها بحروف كبيرة، "أنت يا من أحببتني! لن تلومني ان علمت بجريمتي". وخططت حول حاشيتها اثنين من الأحاديث الشريفة. الأول يقول: "من يبحث عني يجدني. ومن يجدني يحبني. ومن يحبني أحبه. ومن أحبه أقتله. ومن أقتله فعليّ ديته". والثاني يقول: "من يمكنه نكران محبته بوجود شاهدين، الاول شحوب الوجه والثاني الدموع؟".

أرسلت اللوحة بيد الحارس الى الحاكم جعفر باشا، فأخبرني عند عودته ان الحاكم أرسل لي قطعتي نقود ذهبيتين، ونقل عنه قوله: "ان مرسل هذه اللوحة رجل مثقف وحكيم، ولقد أعطى بأدب جم جواباً صحيحاً لموضوع النقاش".

* * *

بدخولنا ذلك الجب، وجدنا أنفسنا في زنزانة كبيرة لها بوابتان فقط. ولكل فرد من الأربعمائة سجين داخلها مساحة صغيرة ضيقة لا تزيد على شبرين مربعين للجلوس والنوم والمعيشة. أما ملابسنا التي حصلنا عليها خلال رحلتنا على متن السفينة، فلم تعد مناسبة لنا ورثت وتمزقت من كل ناحية ولم تعد تغطي شيئا من أجسادنا. فجاهدنا بكل طاقتنا وقوتنا في تلك الزنزانة الموبوءة الكريهة الرائحة للبقاء على قيد الحياة.

ذات يوم، استدعى جعفر باشا السجّان المسؤول، وسأله عن أحوالنا. فأجابه بصدق: "انهم في خطر عظيم، بسبب ضيق المكان والحرارة الشديدة والأحوال القذرة". وفور سماعه ذلك، أمره بصناعة كوخ من الخشب والحصير والأعشاب الجافة لقضاء ليلنا فيه. لكن الحرارة بقيت شديدة لا تحتمل داخل الكوخ.

كان من جملة الأوامر التي وجب على الحرس الالتزام بها واتباعها كي لا يناموا أو يغلبهم النعاس أثناء حراستهم الليلية، ترديد تسلسل الأرقام الحسابية دورياً بينهم، واحد 00 اثنان 00 ثلاثة 00 وهكذا، ومن يتخلف عن ذلك يعرّض نفسه للعقاب. فأشفقنا على حارسنا ونصحناه بالنوم، ووعدناه بالحراسة وترديدنا الأرقام بدلا عنه مع بقية الحرس. وكنا سعداء بموافقته على ذلك، فقد تمكنا من الوقوف تحت قبة السماء والتمتع بالهواء الطلق. الا اننا بقينا محرومين من جميع مستلزمات الحياة، فلم تكن لدينا لا قدور ولا أوعية للطبخ ولا حتى أقداح أو أكواب لشرب الماء.

كانت حصتنا اليومية من الطعام حفنة من حبوب الذرة وجب علينا طحنها وعجنها وخبزها بأيدينا، ولم يكن معنا من المال ما نستطيع به شراء بعض الملح لاضافته اليها ولا حتى قطعة نقود نحاسية. لكننا استطعنا بعد مدة الحصول على بعض المال، ثم وجدنا من يقوم بعملية الخبز بدلنا. فاحتفلنا بذلك وفرحنا كثيرا. وهكذا قضينا ثمانية أو تسعة شهور في (جب الرعب) قانعين شاكرين سعداء. فتحت علينا خلالها أبواب الكرم من كل الجهات.

ذات يوم، جاء لزيارتنا وللاطلاع على أحوالنا رجل مسيحي يدعى بولس، وكان يقوم بمهمة القنصل الفخري لايران، وكان من أغنى رجال السودان. فرقّ ولان قلبه لسوء حالنا، وأهدانا ملابساً وقهوة وفانوساً وحصران. ولتقديم واظهار عظيم شكرنا، كتبت له بخط عربي جميل اسم السيد المسيح على هيئة صليب وكتبت على حاشية اللوحة: "ان الصليب مقدس ومبجل طالما وجد السيد المسيح فيه طريقاً لمحبوبه". ثم أهديتها له. وصنعت لوحة أخرى أهديتها للقنصل الألماني وكان مسيحياً هو الآخر، ولكن من طائفة البروتستانت. فأرسل لنا مقابل ذلك سماور مع ملحقاته من أدوات الشاي.

بعد أن أصبحت لدينا معدات كافية لصنع الشاي، بدأنا بدعوة رفاقنا السجناء لتناوله معنا. وبالتدريج بدأ أهل مدينة الخرطوم يسمعون عن أخبارنا. فجاء لزيارتنا العديد منهم من مختلف الديانات أفراداً وجماعات، وكان من بينهم في بعض الأحيان شخصيات عسكرية ومدنية، جاءوا حاملين معهم هدايا مختلفة اقتسمناها مع زوارنا وضيوفنا وبقية السجناء.

أما بخصوص ما كان يجري داخل السجن، فكانت تحصل أشياء غريبة وعجيبة لا يمكن تصديقها، ومن ضمن ذك كان هنالك سجين يدعى "يوسف"، لقبّه بقية السجناء ب "الجرذ" لأنه كان يسرق حتى من رفاقه داخل السجن. وقد طلبت من أصدقائي عدم الاحتكاك به أو التعامل معه لبذاءة أفعاله وأخلاقه. كما كان هنالك من ضمن السجناء امرأة تعيش مع السجناء داخل السجن متهمة بالفجور اتخذها هذا الجرذ زوجة

له. ولما لم يكن هناك مكان خاص لخلوتهما، كانا يناما معا أمام الجميع غير مبالين أو مهتمين بالأربعمائة سجين من حولهم.

ذات يوم وصل سمعنا ان الجرذ وزوجته لم يتناولا الطعام منذ يومين. وكبهائيين لم نستطع تحمل الخبر وتجاهله. فأخفيت عملة ذهبية داخل ورقة سيجارة وقدمتها له. وحال اكتشافه ذلك انقلب وتبدلت أخلاقه تجاهنا وأصبح لطيفا معنا ووعد باعادة المبلغ في المستقبل. ومن وقتها بدأ يقترب مني، فرحبت بذلك وقاسمته كل ما معي بفرح وسرور.

حدث ان تدبر عدد من السجناء ذات يوم طريقة للهرب، واستطاعوا قطع اغلال بعضهم البعض ساعة طحنهم حبوب الذرة، فلم ينتبه الحرس ولم يشعروا بصوت المبرد وهو يعمل في سلاسل السجناء. وفي النهاية نجح ثمانية منهم في تحرير أنفسهم. وفجأة، انطلقوا هاربين طارحين الحرس أرضاً وفروا تحت جنح الظلام. فتتبعهم الحرس وطاردوهم واستطاعوا الامساك بأربعة منهم واعادتهم، بينما رمى الأربعة الآخرون أنفسهم في مياه النيل وسبحوا نحو الضفة الأخرى واختفوا عن الأنظار. فتغير حال السجن في اليوم التالي كما لو أن أبواب الجحيم فتحت علينا. فاستبدل الحرس والجنود بمجموعة اخرى، وصدرت أحكام وأنظمة جديدة، وأعادوا القيود المزدوجة لجميع السجناء، وبدأ تحقيق مركز وشديد وحكم بالاعدام شنقاً على كل من حاول الهرب وتم القاء القبض عليه.

ورغم ابتعادنا كل البعد عن التورط في مثل هذه المحاولة، الا ان آثارها المنحوسة انصبت على رؤوسنا مرة واحدة، ولفّق لنا شخص ما تهمة توفير المبرد للهاربين! واكتشفنا ان ذلك الشخص لم يكن سوى الجرذ، فهو الذي أخبر الضباط ان المبرد يعود للايرانيين وهم الذين سلموه للسجناء لتدبير هربهم. فلم نستطع النوم تلك الليلة وتوقعنا البلاء والمصائب في صباح اليوم التالي. عندها تناولت كتاب القرآن أتخيّره، وقرأت أول آية وقع نظري عليها: "وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد ". فتفائلنا خيراً وتأكدنا من سلامتنا صباح الغد وقررنا مدّ يد العون والمساعدة لمن يحتاجها.

بشروق شمس صباح اليوم التالي، سيق جميع السجناء الى باحة السجن حيث أجلسوا بشكل دائري حول أعواد المشانق الاربعة. فخيم على المكان سكون وهدوء تام عند ظهور الحرس وهم يصرخون ويأمرون شاهرين سيوفهم بأيديهم يتقدمهم الضابط المسؤول. وحال اعلانه عن عدم صلة السجناء الايرانيين بعملية الهروب، نزع الحرس قيودنا وتركونا ننسحب على الفور الى داخل زنزانتنا، اذ لم يكن باستطاعتنا تحمل رؤية منظر عملية الشنق. أما عقوبة بقية السجناء فكانت جماعية، فربط كل اثنين منهم معا لمدة ثلاثة أيام بلياليها. وخلالها كنّا قائمين على خدمتهم بكل طاقاتنا أيفاء لعهدنا ووعدنا.

* * *

استجابت الحكومة لطلب والتماس الرجل الرحيم جعفر باشا بعد استلامهم لرسالته التي امتدحنا فيها بقوله: "ان السجناء الايرانيين رجال مثقفون ومهذبون وذوو أخلاق حميدة ولم يفعلوا أدنى ضرر أو أذى للناس هنا. بل على العكس، أثبتوا فائدتهم وخدمتهم العظيمة للمواطنين". فجاء أمر الحكومة بالموافقة على عدم ترحيلنا مع بقية السجناء المائة المقرر نقلهم - ومن ضمنهم الجرذ - من سجن (جب الرعب) الى سجن (فاشيودة).

كتبت رسالة مطولة عن تاريخ الأمر المبارك لشيخ الاسلام في مدينة الخرطوم، وكان رجلا كفيف البصر خارق الذكاء يدعى الشيخ أمين، وأوضحت في ختامها ان سبب اعتقالنا هي قسوة وتعصب القنصل الايراني وتقاريره الظالمة الملفقة التي قدّمها للحكومة المصرية عنّا. وعندما - أبصر - هذا الرجل الضرير مظلوميتنا أخذ الرسالة الى

الحاكم جعفر باشا وسأله التحقيق في قضيتنا. ولم يمض وقت طويل حتى جاء الحاكم بنفسه الى سجننا وطلبنا للمثول أمامه، وسألنا:
من كتب منكم هذه الرسالة الى شيخ الاسلام؟
فجاءه جوابنا جماعيا: "نحن".
فقال، لقد عرفناكم واشتهرتم بثقافتكم وتعليمكم، ولكنني سألتكم ولم أحصل على رد وجواب مقنع ومحدد منكم.
فاستأذنته في الكلام وقلت له: اننا مسرورون وسعداء ولا نعرف كيف نتكلم وكيف نختار الكلمات امام شخص محترم ومبجل وفي مقامكم العالي، خاصة بعد تفضلكم علينا بكل هذا الاهتمام الكبير، ونحن نعلم ان كثرة الكلام لا تليق بمحضر شخص جليل بمنزلتكم، وقد يكون لجهلنا وعدم معرفتنا بلهجتكم بعض الأثر في خلق وايجاد مفاهيم مختلفة لدينا لما تفضلت به. ومع ذلك فطالما اتفق جوابنا جميعاً، فلابد أن يكون أحدنا صادق وصحيح. وبهذا لا يمكن اعتبار البقية مّدعين وغير صريحين.
فرح الحاكم لجوابي وأمر باحضار مقاعد لجلوسنا. وكان من جملة ما قاله: منذ مقابلتي الأولى لكم عملت ما في وسعي لتسهيل أمور معيشتكم، وسأستمر على ذلك ان شاء الله. ثم أمر الحرس بنزع قيودنا وبنقلنا الى سجن الخرطوم، وأمر مسؤولي السجن وحرّاسه باسلوب رقيق رحيم، الترفّق والرحمة بنا والسماح بتجوالنا في شوارع المدينة وأسواقها خلال أوقات النهار. ومنذ ذلك الحين تبدلت حصتنا اليومية القديمة من الذرة وقدّم لنا بدلا عنها الخبز المصنوع من الحنطة مع قليل من اللحم يومياً. وبانتقالنا الى مدينة الخرطوم سمح لنا المسؤولين فيها التمتع بحريتنا. فزاولنا أعمالنا الخاصة مرة أخرى. وعمل اثنان منّا بالنقش، وعمل الحاج علي طبيباً وعلي أفندي مدرساً للغة الأنكليزية.
أما الحاج أبو القاسم فلقد اعتاد - خلال فترة الاعتقال - الجلوس والانزواء وحيداً وترتيل الأدعية والمناجاة بمعزل عن الآخرين. وعند انتقالنا الى الخرطوم فضل البقاء في السجن وعدم مرافقتنا. ولبراعته في التجارة ولبخله بعض الشيء، استمر بالعيش على حصته القديمة من الذرة وراح يبيعنا حصته اليومية من الخبز واللحم. وقليلا قليلا تجمّع لديه بعض المال واغتنى من جراء تلبية طلبات وحاجات السجناء بشرائها من السوق وبيعها لهم بعد تحميلها بعض الفوائد.
وبالتدريج أصبحت "زنزانتنا" مقهى لأهل المدينة، وارتادها مختلف الشخصيات، فأكرمناهم بتقديم الشاي والقهوة والحلويات، وفي بعض الأحيان قدمنّا النارجيلة لهم. ولم أتردد تجاه معاملتهم الحسنة وكرمهم الجم لنا في طبخ الرز الايراني لهم عندما طلبوا ذلك.
أعتقد بعض كبار الشخصيات في المنطقة، بل وحتى بعض المتعلمين، انني أملك قوى سحرية غامضة أستطيع بواسطتها تحضير الأرواح والتغلب على الشيطان، وبامكاني السيطرة حتى على الشمس. ولارضاء فضولهم ولمعرفة درجة مقدرتي وكفائتي في هذا المجال، أحضروا لي ذات يوم وأنا في (جب الرعب) شيخاً له شهرة واسعة في تلك المناطق في السيطرة على الأرواح. فبادرته أول لقاءنا بالسؤال عن مقدار خبرته في هذا المجال. فأجابني ان باستطاعته استحضار الجن لزيارة أي شخص في نفس الليلة التي يطلبهم فيها اذا كتب جملة معينة على أظفر أصبعه. فأجبته، يبدو انك ما زلت مبتدئا، فبأستطاعتي دعوة الجن لمهاجمتك وضربك في هذه اللحظة بالضبط، وشرعت على الفور باستدعاء روح شريرة. فخاف الرجل وارتعب بدرجة كبيرة، وتوسل اليّ الكف عن ذلك. فسامحته وقلت له ان الأرواح ستزوره في هذه الليلة لكنها سوف لن تؤذيه.
ان الخرافات منتشرة بشكل لا يعد ولا يحصى في تلك المناطق من العالم. فعلى سبيل المثال، اذا مرض شخص ما، خاصة اذا كانت سيدة، يعتقد الأهالي - دون أدنى

شك - ان قلب المريضة قد سرق، فتحيط بسريرها جماعات من الرجال والنساء ليعزفوا الموسيقى ويغنوا ويسردوا الحكايات لساعات طويلة بجوارها. فهم يعتقدون انهم بهذه الأفعال يشجعون الجن على الحضور وتلقين أحد الحاضرين ما يريده. فاذا تفوه أحدهم مثلا، وقال: "أعط فلان بعض المال"، يسارعون للتنفيذ على الفور لاعتقادهم ان قلب المريضة المسروق سيعود اليها ثانية.

* * *

حلَّ محل صديقنا الكريم جعفر باشا شخص آخر اسمه اسماعيل باشا. واتضح فيما بعد أنه لا يقل عن سابقه رحمة تجاهنا، وعمل ما في وسعه للمحافظة علينا وحمايتنا من هجوم الحاقدين. ورغم ان الألتماس الذي بعث به جعفر باشا الى حكومته كان سبب السماح لنا بالسكن داخل المدينة وحصولنا على حريتنا النسبية في كسب معيشتنا ومزاولة أعمالنا فيها. الا ان جواب الموافقة جاء الى السودان في زمن خليفته - اسماعيل باشا - ففرح الباشا الجديد كثيرا لتمتعنا في عهده بحريتنا وخلاصنا من السجن ومن الاشغال الشاقة والقيود والاجواء الملوثة. وكان لطيفا وكريما جدا معنا لدرجة أنه دفع ايجار السنة الأولى لبيتي من ماله الخاص.

لم يدم - مع الأسف الشديد - حكم اسماعيل باشا أكثر من ستة شهور، فلقد وجد نفسه أمام لجنة تحقيقية. نعم كان عدد أعدائه أكثر من عدد أصدقائه. وخلال تلك الفترة العصيبة من حياته ذهبنا لزيارته في بيته. فوافق على استقبالنا لتأكده من اخلاصنا وصداقتنا له. ومن ضمن ما قلناه خلال اللقاء: "ان ثبتت صحة التهم الموجهة اليه من قبل خصومه، فلا يوجد أمامه سوى باب التوبة الذي يتركه الله مفتوحا أمام وجوه عباده دائما. والله وعد في كتابه الكريم بمغفرة ذنوب كل من يأتيه نادماً تائباً. أما اذا كانت التهم ملفقة ضده ظلماً وبهتاناً، فعليه البقاء سعيداً وراضياً، وتسليم أمره وشؤونه ليد الله أرحم الراحمين".

في النهاية، أصبح معاون الباشا هو الحاكم الجديد، واحتفظ تحت تصرفه - بالاضافة الى منصبه - بجميع الأمور العسكرية. وكان منصفاً ولطيفاً معنا أيضاً، وأسند لي وظيفة معلم قواعد اللغة العربية في مدارس الحكومة. فزاولت مهنتي في الصباح وقضيت الأمسيات في استنساخ القرآن ومجاميع كثيرة من الادعية المختلفة.

* * *

بقينا طوال كل تلك السنين جاهلين بأمر نفي حضرة بهاءالله الى الأرض الأقدس. ولم نعلم شيئا عما حدث وجرى له. فاشتقنا لسماع أخباره ولم تكن هنك وسيلة للاتصال بمحضره، وبعثنا الكثير من الرسائل الى ادرنة مع العديد من الأصدقاء من مختلف الديانات، لكننا لم نتأكد من وصولها.

كان هنالك رجلاً مسيحياً يدعى الياس ممن يؤمنون بسمو ورفعة كتاب القرآن على بقية كتب الله السابقة. عندما علم هذا الرجل الطيب القلب صاحب العقلية الراجحة بحيرتنا وحرماننا، وعدنا بارسال مكاتيبنا الى حضرة بهاءالله عن طريق أصدقائه وأقربائه ومن خلال اتصالات مكاتب عمله في دمشق وبيروت وغيرها.

كنّا جاهلين تماما بما جرى لحضرة بهاءالله. فمن أين لنا أن نعرف أو نعلم ان حضرته أرسل مع صحبه الى عكاء ليعيشوا في أسر شديد؟ كما علمنا فيما بعد أيضا ان أشخاصا مثل جناب نبيل حاولوا جاهدين ولأكثر من ستة شهور مشاهدته فقط والفوز ولو بنظرة خاطفة منه.

في خلال تلك الفترة العصيبة، وصل الحاج جاسم بغدادي الى السودان مرتدياً لباس الدراويش. قاطعاً كل تلك المسافة الكبيرة بين أرض الأقدس والسودان ليجدنا كما وعده حضرة بهاءالله تماماً. ان الكلمات لتعجز عن وصف شدة سرورنا وفرحنا وامتناننا لوصوله ولقياه. فكان ذلك كما لو ان شمس الحق قد أرسلت بشعاع محبتها النافذة الى ظلام زنزانة حياتنا.

مكث معنا الحاج جاسم أربعين يوما، لم نتكلم خلال كل ثانية منها الا عن قصص وحكايات نفي حضرة بهاءالله وسجنه الأبدي في عكاء وعن أخبار بقية الأحباب والأصحاب.

عندما علم أهل السودان بوصول رسول من بلد محبوبنا أرسل خصيصاً للأطمئنان علينا ونقل تحياته وسلامه لنا. اندهشوا كثيراً لهذه الطريقة الجديدة والمفاجئة في التعبير عن المحبة. ووصفها المسلمون بأنها من أفعال القائم الموعود. بينما وصفها المسيحيون بأنها لا تصدر الا عن المسيح ذاته. وانتشرت أصداء هذه الالتفاتة الالهية في كل مكان وجاءت الدعوات للحاج جاسم لزيارة العديد من منازل أهل البلاد بمختلف أصولهم - أتراك مصريين عرب مسيحيين ومسلمين - فتكلمنا في جميع تلك اللقاءات بصراحة عن حضرة بهاءالله وعن قصة نفيه وأسره في مدينة عكاء.

لم يزل الحاج جاسم موجوداً بيننا عندما حمل الينا صديقنا الياس أفندي لوحاً أرسله لنا حضرة بهاءالله جواباً لتضرعنا، فزادت بذلك سعادتنا عن كل وصف بعد استلام اللوح. وتأثر الرسول - الياس أفندي - بشدة لدى سماعه مضمون كلمات اللوح الذي حمله، وقال لنا بأنه موقن بكل ما ندعيه ونقوله، وانه ان كان يؤمن ويوقن بأصغر نبي جاء ذكره في الانجيل، فانه يؤمن بأن كاتب هذا اللوح هو الأب الحقيقي لعيسى المسيح. وكثيرا ما كان يكرر رغبته في الايمان. وذات مرة كتبت له عن الاعتقاد السائد بين الناس حول وجود ايليا النبي في هذه الدنيا، وقلت له بأنني أعتقد بأنك أنت ايليا الحيّ هذا، لأنك عثرت على محبوبي وجئتني برسالة منه.

بعد عودة الحاج جاسم الى الأرض الأقدس، بدأت أخبار الجمال المبارك تصلنا باستمرار، وصرنا نستلم سنوياً حوالي خمسة ألواح.

وبالمناسبة، أجد أنه من الواجب عليّ ذكر اسم الحاج أحمد ميلان من أذربيجان، لأنه وبسبب جهوده وجهود من كانوا يعملون معه، استمر وصول الرسائل والأخبار الينا. لقد سمع جميع الأحباء عنه وعن خدماته العظيمة للأمر. ان ورع وتضحية وثبات هذا الرجل جعلت منه خادماً فريداً للعتبة المقدسة ولمركز العهد. في الحقيقة انني لا أستحق ثناء وتقدير شخص بمثل مقامه ودرجته.

* * *

لنعد مرة أخرى الى اسماعيل باشا الذي أثبت أنه حاكم رؤوف للبلاد. فلقد تدرّج في المناصب الحكومية العالية، وازدادت زياراته لبيتنا كلما ترقى في المناصب الوظيفية، وتعززت أواصر الصداقة والود بيننا حتى بعد وصوله الى أعلى المقامات والدرجات الوظيفية.

حدث ذات يوم أن غاب الحاكم عن مكتبه فترة قصيرة. فاغتنم هذه الفرصة أحد موظفي المكتب الاعلامي - وكان يعمل مراقباً للمدرسة الدينية - وبدأ في نشر الاشاعات المغرضة ضدي. ومن ضمن ما أشاعه أنني قد أغويت أصحابي في الارتداد عن الدين الاسلامي، وراح يجمع التواقيع من السكان تأييداً لكلامه. وبسبب مؤامراته ومكائده الشيطانية، لم يجرأ أحد على الاقتراب مني، ومالت غالبية السكان الى جانبه. ففعل كل ما استطاع عليه لتحطيمي والقضاء عليّ. أما انا، ففوضت أمري الى الله وحده.

ان القاريء ليتذكر الشيخ أمين الرجل العالم الكفيف الذي جاء ذكره سابقاً. لقد شاهدت وسمعت عن أخبار أناس كثيرين، لكن ليس بمثل علمه او بدرجة ذكائه. فلقد كان باستطاعته تمييز اي شخص غريب يجتازه او يمر من جانبه في السوق او الشارع بمجرد الاستماع الى وقع أقدامه. كما كان بامكانه ايضا - ونتيجة لاطلاعه الواسع - معرفة رقم صفحة أي موضوع في أي كتاب على الفور.

في ذلك الوقت وبينما كان اسمي يتردد على كل لسان والكثير من الناس يصدقون كل ما يقال عني من أقوال واشاعات. نهض هذا الرجل الشريف ليدافع عن

المظلومين، وصرّح علانية ان الايرانيين رجال شرفاء ومؤمنون حقيقيون ومخلصون في اعمالهم. وما هذا الذي يتردد على ألسنة الناس الا مجرد افتراءآت كاذبة.

بعد عودة الباشا من سفره وسماعه ما لفّق من تهم ضدنا وما جرى لنا وقت غيابه. أمر على الفور بفصل الموظف المذكور من عمله واجراء تحقيق معه. فاتضح انه ارتكب العديد من التجاوزات والمخالفات القانونية. فلحق العار به وساءت سمعته. فلزم بيته وحيداً وتجنبه اصدقاؤه واقرباؤه في الوقت الذي كانوا يأتوني لطلب المساعدة في تدبير شؤونهم وأمور حياتهم.

* * *

جاء لزيارتنا بأمر من حضرة بهاءالله في السنة السابعة او الثامنة من اعتقالنا الحاج علي اليزدي وأخوه. وكانت أحوالنا المادية قد تحسنت ولم نكن بحاجة الا لهبوب أرياح نسيم أزهار حديقة عناية محبة جمال القدم. وهذا هو ما منّ علينا به حضرته بوصول هذين الحبيبين من الارض الاقدس ومعهما الجديد من الاخبار التي غمرتنا وانعشت نفوسنا تماما.

واقترحنا عليهما خلال فترة زيارتهما فتح مركز تجاري لهما في الخرطوم. فوافق الحاج علي على الاقتراح واصبح بنفسه رئيسا للمركز. وشغلت أنا مركز المدير في السنة التالية. ومع مرور الوقت اشتهرت وذاعت سمعة المكتب وتعرف الكثيرون من خلاله على الأمر وأتباعه.

كان في كل عام يأتينا شخص او شخصان من الارض الاقدس في زيارات عمل، حاملين معهم طعامنا وغذائنا الروحاني كي نبقى أحياء. وكنّا نقدم الشكر لله الاف المرات لتفضله علينا بمعرفة هذا الظهور العظيم.

حدث ان تعيّن الجنرال جوردن حاكماً للسودان. فوجد الشخص الذي هاجمني واتهمني زوراً فرصة مناسبة ليخرج من عزلته المنزلية ويشن علينا هجوماً جديداً بشعاً، ولم يدخر هذا العدو اللئيم في هذه الكرّة وسعا أو جهداً، ودفع الرشاوى واشترى الذمم في محاولة منه لتسميم أفكار الحاكم الجديد ضدنا. بدأت خطوته الاولى مؤذية لدرجة انها لفتت أنظار الجميع. وفور سماع الحاكم هذه الروايات الكاذبة ارسل في طلب التقارير اللازمة من القنصل الانكليزي وغيره. فجاءت الرسائل الجوابية تمتدح تصرفات جميع أفراد مجموعتنا الصغيرة وتدحض الاشاعات المغرضة، ووصفوا كل واحد منّا بالمواطن النبيل.

دأبت العادة في تلك الايام ان يخصص الحاكم الجديد يوماً معيناً لقيام المواطنين بزيارته وملاقاته والترحيب به وتمني السعادة وطيب الاقامة له. فجهزت لذلك اليوم مرآة كبيرة طولها مترين ونصف المتر وعرضها متراً ونصف، ونقشت عليها بمادة الزئبق بأحرف انكليزية كبيرة "عاش الجنرال جوردن"، وأرسلتها الى الحاكم بصحبة القنصل البريطاني. فوافق على قبول هديتي ببالغ السرور، وأمر بعمل واحدة اخرى لشقيقته في انكلترا. وأرسل لنا بالمقابل مائة جنيه.

كنت متأكدا ومتيقّنا من أعماق قلبي تماما - وحتى في أشد لحظات سجني وأسري قساوة - من مجيء اليوم الذي سأرى فيه حضرة بهاءالله مرة ثانية. فلقد وعدني بذلك شفاهة وفي ألواحه. وعندما سمعت الجنرال جوردن يقول لي بلطف كبير وأنا أقدم له المرآة الثانية: "ان أي مبلغ من المال لا يوازي هديتك الرائعة هذه. فقل لي، ماذا يمكنني أن أفعله لك". لم أترك تلك الفرصة الثمينة والمناسبة تفلت من يدي. فقلت له: "لا أريد سوى تحرير نفسي من هذا الوضع".

فأجابني: "قدّم التماساً واكتب فيه انكم سجنتم بدون تحقيق او استفسار".

جهزت الالتماس وذكرت فيه اننا جميعاً نستنكر وبشدة كلما نسب ولفق ضدنا من تهم وافتراءآت، وانه لا توجد في الارض قوة سوى قوة الله العظيم يمكنها السيطرة والتحكم بقلوب الرجال، وليس لهؤلاء الملوك والحكام من حق في التحكم والسيطرة

على قلوب الناس وضمائرهم. لذلك نحن نلتمس منكم اطلاق سراحنا والسماح لنا بالعودة الى أوطاننا. وفي النهاية ذيّلنا خاتمة التماسنا بدوام الدعاء لحكومته العادلة. كما كتب احدنا التماسا اخر مشابها لالتماسنا.

بعد تقديم التماسنا الى الجنرال جوردن، وصلتنا بعد مدة قليلة برقية جوابية تعلن باننا احرار في العودة الى ديارنا متى شئنا. لكنه لا يسمح لنا بالذهاب او العودة الى مصر.

كان يوم سفرنا ومغادرتنا ارض السودان يوماً مشهوداً حقاً. فلقد جاء لرؤية صعودنا ظهر الباخرة وتوديعنا ونحن في طريقنا الى عالم الحرية جميع الشخصيات البارزة من مسلمين ومسيحيين وغيرهم.

وبعد سفرنا علمنا بأن القنصل الايراني العام في مصر ميرزا حسين خان صاحب المظالم الكثيرة والمتسبب في نفينا واعتقالنا، أصبح أخيرا محط كراهية مواطنيه، وخلقت مؤامراته العديدة المستمرة التى حاكها واستنبطها ضد الآخرين لتجريدهم من ممتلكاتهم وأموالهم الكثير من الخصوم والأعداء والمعارضين له سبباً دفعهم للجوء الى المحاكم الايرانية للمطالبة بما اغتصبه وسلبه منهم. فكشف ضباط التحقيق والمسؤولين بسهولة جميع مظالمه ومخططاته وسرقاته. فجرد في أول الأمر من كل أمواله وثرواته التى جمعها من مواطنيه بالتعسف والظلم وصودرت ممتلكاته وأعتقل وقيد بالأغلال وأرسل في نهاية الذلة الى ايران. وهكذا نال هذا الظالم في النهاية جزاء أعماله الشيطانية.

* * *

اتجهت سفينتنا الى جدة - الميناء العربي المشهور - مكان تجمع الآف الحجاج القادمين عن طريق البحر الى مكة والمدينة. وحيثما رست سفينتنا وهي في طريقها الى هناك، أظهر لنا رؤساء العشائر والقبائل العربية كل اشكال الكرم والضيافة. وحال رسوها في جدة وجهت وجهي نحو مدينة مكة المكرمة وقلت: "نعم يا مولاي، أنا هنا".

كانت بانتظاري هناك مفاجأة كبيرة فرحت بها فرحاً عظيماً، اذ تشرفت بلقاء اثنين من الأحباء هما "رسول الرحمة" سلمان والحاج محمد يزدي.

غادرنا مكة عن طريق البحر بعد قضاء مدة شهرين في الحجر الصحي، وقطعنا بحراً عاصفاً هائجاً شاهدنا في كل لحظة من لحظات سفرنا رياح الموت منتشرة فوق رؤوسنا. وبعد أن فقدنا الأمل في الوصول الى أي ميناء، وصلنا الى بيروت. في هذه المدينة كان لنا شرف لقاء جناب محمد مصطفى بغدادي، أحد أكثر أتباع الأمر شهرة. فهذا المؤمن واجه خلال حياته امتحانات صعبة وقاسية، كان يخرج في كل مرة منها أكثر ايمانا وقوة وثقة. كان ثابتاً وفياً ممتليء القلب بالحب والوفاء. لم أقابل في حياتي شخصاً مثله أبداً، قدّم كل حياته لخدمة الأحباء، وسلط في نفس الوقت نار غضب الله على الناقضين. وحمل من بعده أولاده حسين وعلي وضياء نفس صفاته ووقفوا جميعاً في خدمة أمر الله وأهل البهاء وقفة رجل واحد. ان اطفال هذا البيت تحلوا برداء الخدمة وكأنما أرضعتهم والدتهم حليب الحياة الأبدية وربتهم في أحضان المحبة والحنان. كان رب هذه العائلة الكريمة بهائياً بكل معنى الكلمة وبكل ذرة من وجوده. واستنشقت في حضور هذه العائلة الفريدة عطر خدماتهم الرائعة لحضرة بهاءالله. وخلال فترة وجودي في بيتهم كتبت التماساً لحضرة بهاءالله في الأرض الأقدس، وزينت أعلاه بالآية القرآنية: "وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء"(الزمر 39،47) لكنني وضعت "حيث تشاء" بدلا من "حيث نشاء". وبوصول رسالتي بين يديه الكريمتين. تفضل على الفور: "لقد دعوناه منذ زمن بعيد. ليتفضل بالحضور".

* * *

وصلنا بعد سفر دام ثلاثة أيام الى مدينة عكاء، المدينة التى امتدحتها ومجدتها الكتب السماوية المقدسة السابقة. كان يسكن في "بيت الحج" ثلاثة أفراد لا يمكن وصفهم الا بأنهم جواهر البقاء والمختارين من الله. ميرزا محمد حسن القائم على خدمة البيت والخادم الحقيقي لجميع الزوار. وحسين آقا، نور الاخلاص الحائم حول حضرة بهاءالله والمستعد لتنفيذ رغباته على الدوام. وميرزا أقا جان، الخادم الحاضر لحضرة جمال القدم. الرجلان الأولان لم يتأثرا أو ينخدعا بما نالاه من ألقاب ومقامات أبدا وضحيّا بنفسيهما لمحبوبهما تماماً، ولما عهد اليهما من خدمات، ولم نسمع منهما كلمة واحدة تشير الى رغباتهما الشخصية. وكما يقول الشاعر الايراني:

يموت الأحبة من أجل محبوبهم وليس لديهم جوابا يقولونه

أما الشخص الثالث فلم يستطع الثبات في وجه الشهوات النفسية، وانقلب قربه ودنوه في النهاية الى خسارة أبدية.

حدث ان ضعف بصري بسبب طول مدة اعتقالي وصعب عليّ القراءة والكتابة لمدة طويلة. وذات مرة دخل حضرة عبدالبهاء الى غرفتنا في بيت الحج وسألني عن حالة عيوني وآذاني، وبعد أن شرحت له حالتي، أوصاني بعدم الاستمرار في حلاقة شعر رأسي(28)، وأوضح ان ذلك يتعارض صراحة مع نص الكتاب الأقدس. ونصحني أن أترك شعري ينمو وأحاول الكتابة حتى ولو عشر كلمات يوميا، وتفضل مؤكداً: "وعند استرجاعك لقوة بصرك، عليك بزيادة مقدار الكتابة". كانت تلك هي وصفته اللطيفة لي.

واليوم ورغم تجاوز عمري الثمانين عاماً، فان سمعي وبصري لم يصلا الى تلك الدرجة المتدنية من الضعف التى مررت بها قبل خمسة وثلاثين عاما عندما كنت في السودان.

في بعض الأمسيات، كنّا نستدعى الى محضر حضرة بهاءالله. وبسبب خلفيتي الاسلامية، وسابق معرفتي بوجود فئات عديدة من الملائكة، منهم من يقف دائم الدعاء والتسبيح، ومنهم من يجلس مسبحاً بأسماء الله وصفاته الحسنى، ومنهم من هو دائم السجود بين يديه. لكن أفضلهم منزلة أولئك الدائمي العجب والحيرة من عظمة وجمال محبوبهم. فلقد وجدت بين جماعة البهائيين الساكنين في مدينة عكاء أمثلة حقيقية للفئة الأخيرة، كانوا أكثر من مئة رجل، اتحدوا فيما بينهم كاتحاد أعضاء الجسد الواحد، يفخر بعضهم ببعض، رابطهم الوحيد في وحدتهم الحقيقية هو خالص محبتهم المطلقة لحضرة بهاءالله. كان غالبيتهم يعملون في محالهم التجارية خلال أوقات النهار، ويجتمعون قبل غروب الشمس بثلاث ساعات قرب منزل حضرة بهاءالله. فيجلس بعضهم على درجات السلم أو يسيرون بهدوء حول البيت. لا يتكلمون الا بكلماته ولا يذكرون الا رغباته، وعندما يشاهدون حضرته - في بعض الأحيان - ماشياً في شرفة منزله، لا تعرف متعتهم الحدود اذا ما أشار اليهم بالوفود عليه في حجرته. كانوا متحدين بقوة ومستعدين للتضحية بكل شيء في سبيل بعضهم البعض، وعندما تحظى مجموعة منهم بشرف لقائه، يشاركهم الجميع فرحهم وولههم الروحاني ويتأثر ببهجتهم كل من حولهم. ومن السهولة على أي فرد الشعور بتأثير حالة جذلهم في جو المكان. والحقيقة ان لهم كل الحق في الوصول الى هذه الدرجة من الثمالة الروحانية، فقد سمح لهم بدخول جنة اللقاء. انه شيء ممتع حقاً رؤيتهم بعد عودتهم من المحضر المبارك، فلقد كانوا يمكثون صامتين لا يتكلمون لفترة طويلة، وبعد صحوتهم وانتباههم يبدأون بنقل ما سمعوه من حلو الكلام لبقية الحاضرين ويعترفون جازمين ان كلماتهم هي ليست بالضبط نفس الكلمات التى تفضل بها من كانوا يقفون بمحضره بتمام الابتهاج.

لا أتذكر أبدا ان هناك من ادعى انه استطاع التفوه بجملة كاملة في محضره المبارك. بالطبع، وصلت أرض الأقدس بعض النفوس المتعجرفة طلبا للقائه وبحثاً عن الجدل والتشكك والمناظرة. وسمح بلطف حتى لهؤلاء بشرف لقائه. ومع ذلك فغالبا ما يحدث عند سماعهم صوته المبارك وهو يقول: "تفضل بالدخول رجاء". وعندما يدخلون غرفته ويركعون أمامه يبقون جالسين غير قادرين على التفوه بكلمة واحدة. وهكذا كانوا يتحولون ويتبدلون وينقلبون ويعودون لأوطانهم مخلصين ممتلئين بالمحبة والايمان. ومع ذلك، هناك بعض الحالات الشاذة من غير البهائيين الذين رغم شعورهم واحساسهم التام بقوة فيوضاته الروحانية التى تغمرهم أثناء لحظات اللقاء، الا انهم يقولون عند عودتهم الى أوطانهم "انا كنا مسحورون".

* * *

أصبحت سنوات سجن حضرة بهاءالله التسع داخل أسوار عكاء مصدرا للأسى والحزن العميق لحضرة عبدالبهاء. ولكيّ يدخل الفرح والسرور الى قلب والده ويبعد الحزن والغم عنه. اشترى قطعة أرض بين نهرين وزرعها وزينها بالأزهار والأشجار. فاستغرق تنظيم تلك الحديقة ستة أو سبعة سنوات حتى كملت. وعرفت فيما بعد باسم حديقة الرضوان (الجنة)(29). لكن حضرة بهاءالله رفض حتى فكرة زيارة المكان عندما طلب منه ولده حضرة عبدالبهاء ذلك - ولأنه كان سجيناً حسب الظاهر - فقد رفض الذهاب بدون اذن من الحكومة رغم عدم وجود أدنى معارضة من موظفي الدولة في ذهابه الى هنالك.

طلب حضرة عبدالبهاء من مفتي مدينة عكاء الذهاب الى غرفة حضرة بهاءالله للتكلم معه ومحاولة اقناعه، خاصة وانه من المحبين والمخلصين له وتربطه به علاقة صداقة حميمة. وأوصاه بعدم الخروج ومغادرة غرفته الا اذا وافق حضرته على زيارة الحديقة. ذهب المفتي لتنفيذ مهمته، وبعد أن نال اجازة دخوله الى المحضر المبارك، تقدم ورمى بنفسه عند اقدام الجمال المبارك وأمسك بذيل رداءه الطاهر، فحاول حضرة بهاءالله سحب ردائه وتخليصه من يده، لكن المفتي قال:

"لن أدعها حتى تستجيب لطلبي".

تبسّم حضرة بهاءالله وسأله: "ماذا تريد؟"

أجاب المفتي: "لا شيء، سوى أن الجنينة ستكون حديقة الرضوان ان شرفتها بحضورك".

وكلما مانع حضرة بهاءالله في الموافقة على الذهاب، كلما زاد اصرار المفتي على طلبه.

أخيرا وافق حضرته على الذهاب. فأسرع المفتي بالخروج ليزف هذه البشارة الى حضرة عبدالبهاء والى موظفي الدولة الذين كانوا بانتظار نتيجة مهمته.

* * *

تدبر حضرة عبدالبهاء خلال فترة الثلاثة شهور الاولى من وجودي في الأرض الأقدس استئجار قصر المزرعة حيث سكن حضرة بهاءالله فيه لمدة سنتين. وأتذكر أيضا الاحتفال الذي أقيم بمناسبة عيد الرضوان في بيت جناب كليم(30) حيث كنت أقيم في نفس البيت. وصادف في تلك الأثناء أن عيّن أحد الباشوات الجدد رئيساً لدائرة الجمارك في مدينة عكاء، وبينما كان حضرة بهاءالله في طريقه الى بيت أخيه جناب كليم، مرّ حضرته من أمام أحدى المقاهي التى كان الباشا الجديد يجلس فيها مع عدد من ضباطه وبعض شخصيات المدينة. وحال معرفة الجالسين وتمييزهم لشخصية القادم، نهض الباشا وجميع الجالسين معه وانحنوا احتراماً وتقديراً له. فأنزل عليهم حضرته خالص محبته وبركته. فتعجب الباشا كثيراً، ودنى برأسه من أحد الجالسين بقربه وسأله: "من كان هذا الرجل؟ أهو روح القدس؟ أم ملك الملوك؟". فجاءه جواب الحاضرين مرة واحدة: "انه والد عباس أفندي".(31)

* * *

كانت لديّ مجموعة رائعة من الأصدقاء لا أرغب الانفصال عنهم أبدا، مثل المؤرخ الخالد جناب نبيل، وخادم "بيت الحجاج" ميرزا محمد حسن ودرويش صدق علي أحد رفاق سجن ونفي حضرة بهاءالله. كنا نجتمع دائما بجوار منزل محبوب قلوبنا ونمضي الأمسيات في ذكر الله، لذا كانت ليالينا أكثر نوراً واشراقاً من أيامنا بسبب لقاءاتنا الروحانية.

كان درويش صدق علي قبل اعتناقه الأمر المبارك من مدمني الأفيون. والآن وبسبب اقلاعه عنه ضاق صدره وصعب تنفسه كثيرا، وبقي يقاسي ويعاني من ضيق التنفس دائماً. وذات مرة اشتد عليه المرض طوال الليل، وعندما عرض نفسه على الأطباء نصحوه بالعودة الى الأفيون ولو بدرجة بسيطة. فتقدم يطلب الاذن من حضرة بهاءالله في ذلك، لكنه بدلا من تحقيق ما جاء من أجله حصل على قطعة نقود ذهبية لشراء دواء له. فجاءنا والخوف بادياً عليه وهو يقول: ان امتلاك مثل هذه الكمية من المال هي ضد التجرد والثقة التامة بالله. ورغم محاولتنا توضيح الموضوع له، الا انه لم يقتنع أن ما يعتقده بعيد عن مفهوم الروحانيات الحقيقي. لكنه، وبما ان حضرة بهاءالله أبدى رغبته في امتلاك الناس لقليل من رأس المال، فقد فكّر ان أفضل طريقة لتوظيف هذا المبلغ هو شراء كمية من السكر والشاي وتقديمها هدية للعائلة المباركة. فقبلت هديته بلطف لأن مبرراته كانت معقولة ومنطقية.

* * *

حان موعد عودتي الى الوطن. لكن! كيف يمكنني ترك جنة اللقاء والوصال؟ فطلبت البقاء وتأجيل موعد مغادرتي برسالتين متتاليتين. وفي كل منهما نلت الموافقة على تأجيل سفري لمدة اسبوعين. وعندما جاءت المرة الثالثة وطلب مني الرحيل، ذهبت الى حضرة عبدالبهاء وشرحت له مقدار صعوبة تحملي لفكرة فراق حضرة بهاءالله. بعدها أستدعيت للتشرف بمحضر حضرة جمال القدم في غرفته، فتفضل مبتسما: "يمكنك البقاء خمسة عشر يوماً أخرى، بشرط وجود من يضمن مغادرتك حال انتهائها، فنحن نريد عودتك للوطن بكمال الفرح والسرور. لكن، عليك بتذكر الشرط، على أحدهم ضمان مغادرتك!". فأجبت على الفور وبدون تأخير "حضرة المولى"(32). فتبسم ووافق على بقائي خمسة عشر يوما أخرى.

لم أستطع كبح جماح سعادتي وفرحتي عند عودتي الى بيت الزوار، ورقصت من شدة سروري وغبطتي العميقين. وقضيت خلال الاسبوعين الآخيرين معظم أوقاتي في محضر حضرة عبدالبهاء. وانا لا أملك من الكلمات ما أصف به افتتان روحي الشديد، ولا في استطاعتي تكرار حلاوة وجمال ما سمعته من بياناته الرائعة أيضا. وفي نفس الوقت يصعب عليّ الاقرار والاعتراف بالجميل والعرفان بما فيه الكفاية لما غمرني به من غزير النعم الالهية. فلقد أبعدت الى السودان كسجين بائس وخرجت الآن من ظلام السجن لأشاهد روعة جمال هيئة حضرة بهاءالله وحضرة عبدالبهاء. كنت فقيراً معدماً، والآن أملك أشياء عديدة ونقوداً ذهبية وأصبحت أفضل من السابق مادياً وروحانياً. فكيف يمكنني مع كل هذه النعم والبركات التعبير عن شكري وامتناني؟

وبينما كنت غارقا أتأمل في بحور تلك الأفكار، اذا بحضرة المولى المحبوب يوجه لي سؤالا: "هل ستكون سعيداً إن فقدت كل ما تملكه الآن؟" فأجبته: سأعود الى نفس حالتي التي تركت ايران فيها قبل عدة سنوات، فآنذاك لم أكن أملك شيئا، وسوف لن أمانع الآن ان عدت مفلساً الى وطني، ولا يهمني شيء أبداً سوى الاحتفاظ بايماني ومحبتي، فأنت الذي أغنيتني وقبلت ما قدمته لك، ثم أرجعته لي". لكنني لم أفهم ما رمى اليه حضرة المولى ساعتها من ذلك السؤال!

* * *

أخيراً 00 جاء يوم مغادرتي مدينة عكاء وسفري الى ايران. فاستلمت بيدي مجموعة من الألواح المباركة مع تعليمات واضحة جداً من حضرة عبدالبهاء تقول: "عليك بتسليم جميع هذه الألواح الى أحد المؤمنين الثقاة حال وصولك تراب أرض ايران. وقل له أن يرسلها الى اي مكان تختاره عنوانا لك في المستقبل ".

سافرت الى ايران عن طريق الموصل وبغداد. وفي مدينة الموصل كان لي عظيم السرور بزيارة جناب زين وجميع الأحباء الذين ألقيّ القبض عليهم في بغداد وأبعدوا كسجناء الى المنطقة الشمالية للعراق. فاستعار جناب زين الألواح مني وقام باستنساخها. وخلال مجمل ترحالي في مختلف الأقطار - وأنا في طريقي الى ايران - كان موظفو الحكومة الذين يعلمون أنني من أتباع ذلك الرجل الشهير المعروف بعباس أفندي ومن خدّامه المطيعين، يستقبلونني ويعاملونني بكامل المحبة والاحترام لعمق صداقتهم الحميمة معه، وجعلوا من جميع مراحل رحلتي خلال ديارهم شيئا متسماً بالراحة والسرور. ومن ضمن من قابلته من المنفيين هناك عمي جناب وكيل الذي اضطر وهو في تلك السن المتقدمة الى تعلّم مهنة صناعة وتصليح الأحذية لكسب رزقه واعالة أفراد أسرته. فاصطحبني الى منزله وهو في أشد حالات الفاقة والعوز. وشعرت بالخجل لما أبدته لي تلك العائلة من فائض المحبة وكرم الضيافة، خاصة وأنا لا أملك مقابل كل ذلك سوى تقديم كلمات الشكر والامتنان والتعهد بالدعاء نيابة عنهم وعن متصاعدي عائلتهم. ان هناء واتحاد ومحبة هذه العائلة عكست أمامي نفس الصورة التي شاهدتها من قبل بين أحباء مدينة عكاء. لقد كانوا يتنافسون فيما بينهم لخدمة الأمر، ولم يكن لهم هدف أسمى في حياتهم من اقتباس لمحة من وجه حضرة بهاءالله، ورغم فاقتهم وفقرهم، فقد أسسوا صندوقاً للتبرعات يضع فيه صغيرهم وكبيرهم ما يفيض عن حاجته اليومية من المال، كما يسمح للاحباء بالاقتراض من الصندوق عند الحاجة شريطة ارجاع المبلغ مع أرباحه.

* * *

قابلت على الحدود بين العراق وايران شخصاً من أهالي عكاء، وبمجرد ان علم أنني أمضيت بعض الوقت في تلك المدينة، قدّمني لأهالي المنطقة الأكراد - الذين أحاطوني بالمحبة وكرم الضيافة - وراح بعض أفاضلهم يقص عليّ قصصاً وحكايات عن فترة اقامة جمال القدم في مناطق بلادهم الجبلية، وعن عظيم تأثيراته الروحانية على جميع أهالي تلك المنطقة. وكيف فتنوا أشد الافتتان بأحد ألواح حضرة عبدالبهاء التي سبق وكتبها وهو في سن الرابعة عشرة، والذي شرح فيه موضوع العشق الالهي، وكيف استنسخوا منه خلال أيام قليلة ما لا يقل عن عشر نسخ.

في تلك المنطقة سكن رجل ايراني يدعى آقا جان. كان خصماً كبيراً وعدواً لدوداً للأمر المبارك، ناصب العداء للأحباء وسبب لهم العديد من المظالم والبلايا. فحدث ان آمن هذا الرجل بالأمر المبارك خلال ايام اقامتي بين الأكراد وأصبح من المؤمنين الثابتين، ونهض لخدمة الأمر تعويضاً لأخطائه السابقة.

حدث ذات يوم خلال احدى رحلاته أن أغار عليه وعلى من معه من المسافرين مجموعة من اللصوص وقطاع الطرق وسرقوا ممتلكاتهم وكل ما معهم. فوجد المسافرون بعد انسحاب المهاجمين أنهم لا يملكون شيئا وبدون أي متاع. وعندما أدرك آقا جان حجم مصيبته، رفع رأسه الى السماء وهو في تلك الحالة من الكرب والألم، وقال: "يا الهي 00 أهذه هي الطريقة التي يعامل بها آقا جان؟".

لم يمض وقت طويل على تلك الحادثة، حتى استلم آقا جان لوحاً من حضرة بهاءالله يتفضل فيه: "سمعنا مناجاتك. أنت على حق! سيوفقك الله ويكون معك". ومنذ ذلك الوقت فتحت أبواب الرزق على آقا جان وصحبه ونالوا نجاحاً عظيماً في خدمة الأمر المبارك الذي اعتنقوه بشجاعة وثبات.

قضيت مع آقا جان وعدد من الأحباء ساعات عديدة في تبليغ أمر الله للأكراد. ورغم صعوبة المحاولة الا انه آمن أربعة أو خمسة منهم، وابتدأنا بعقد جلسات الدعاء والتعمق بسرية تامة. وذات ليلة وبينما نحن جالسين في أحد البيوت لا يعرف مكاننا أحد، اذا بصوت طرق على الباب. وعندما فتحنا دخل علينا رجل غريب لا نعرفه وأبدى تعطشه لمعرفة حقيقة الأمر المبارك. كانت دموعه تسيل على وجنتيه وهو يقول: "انكم معروفون بانتسابكم لدين جديد، لذلك راقبت أفعالكم، فلم أجد فيها أي سوء، وتنصت لأحاديثكم فلم أسمع منها غير ذكر الله. وبمراقبتي الذين يشيعون عنكم الأباطيل وينشرونها، وجدتهم مشغولين بماديات الحياة، واتفق أن شاهدتهم يلعبون الميسر ويغتابون وينمون. فأدركت انكم عبدة حقيقيون لله".

اعتنق هذا الرجل الأمر المبارك بعد قليل من الحوار والمناقشة. وذات يوم جاءنا شخص آخر ليستعير كتاب الايقان ويطّلع عليه، فعاد صباح اليوم التالي ليروي لنا حكايته، قال: "عندما ذهبت الى بيتي مساء أمس دخلت غرفتي وبدأت بقراءة الكتاب. فتوقفت بعد قليل ونهضت لأقفل الباب من الداخل. بعدها بدأت تراودني أفكار غريبة، مثل احتمال ملاحظة شخص ما اقفالي باب غرفتي وتخمينه انني بصدد قراءة كتاب بابي. فقررت اطفاء النور والذهاب الى الفراش مبكراً حتى أستيقظ فجراً لقراءة الكتاب. لكن الهواجس والظنون لم تتركني هادئاً وبقيت تهاجمني. وفكرت في نفسي وقلت من المؤكد أن جاري سيدرك الآن ان سبب نومي المبكر في ساعات المساء الأولى ما هو الا للنهوض فجرا لقراءة كتب البابية!

بدأت أشعر بالاضطراب، وتساءلت عن كيفية امكاني كسب الشجاعة اللازمة لقراءة هذا الكتاب. وبينما أنا غارق في تلك الحالة، قفزت الى ذهني آية قرآنية تقول "ألا بذكر الله تطمئن القلوب". فجلست أدعو الله القدير باخلاص ليطمئن قلبي ويمده بالشجاعة اللازمة، وخلال وقت الدعاء شعرت بشيء ما ينزل فجأة على صدري، فخاطبت نفسي قائلا: "أنت مرتعب لدرجة الموت من مجرد فكرة قراءة الكتاب. فتأمل اذن مقدار قوة قلب كاتبه؟ انها نفس الشجاعة التي أقدم عليها وعرفها الكثيرين ممن سارعوا وبنوايا خالصة الى ميدان الفداء".

هذه الأفكار قادت صديقنا الى الايمان المطلق. ورغم كثرة انشغاله في مشاريعه التجارية الواسعة الا انه لم يدخر وسعاً أو وقتا في استنساخ الألواح المباركة، كما استطاع أيضا تبليغ الأمر المبارك للعديد من الأشخاص. وكما يقول أحد أبيات الشعر الفارسي:-

لا تبحث عن الماء. ولكن جد العطشان   أما الماء فسينبعث من أعماق الأرض

* * *

حال وصولي أرض ايران، أودعت - حسب تعليمات حضرة المولى - جميع ما أحمل معي من ألواح مباركة لدى أحد الأحباء الموثوق به ويدعى أسد الله، وطلبت منه ارسالها بسرعة الى تبريز. أما بالنسبة لما أحمله من أموالي الخاصة، فاستشرت الأحباء في أفضل الطرق لاستثمارها حتى أتمكن من تسديد نفقات أسفاري التبليغية من فوائدها. فأشاروا عليّ بايداعها لدى بهائي محترم يسكن في تبريز يدعى الحاج أحمد ميلاني. ولم يخطر على بالي قط ارسالها مع تلك الآثار الروحانية الثمينة التي سلّمتها الى أسد الله. ولكن، لا أنا ولا من استشرتهم استطاع ادراك معاني اشارات ما رمى اليه حضرة عبدالبهاء في سؤاله عندما كنت في أرض الأقدس ، "هل ستكون سعيداً لو فقدت كل ما تملكه الآن؟". لكنه وكما يقول المثل "ان أفضل الأطباء عند ساعة النهاية، ليسوا سوى أغبياء".

سافرت في صباح أحد الأيام مع قافلة في طريقي الى تبريز. ولم يمض على تحركنا أكثر من نصف ساعة حتى خرج علينا من بين التلال المجاورة حوالي ثلاثين

رجلا من قطاع الطرق والخارجين على القانون وهم مدججين بالسلاح، وراحوا ينتشرون بسرعة بين المسافرين. فحاولت في البداية الفرار منهم واستطعت خلال الجري رميّ كيس نقود صغير يحتوي على تسع عشرة قطعة ذهبية في داخل حفرة على الطريق. لكنهم سرعان ما قبضوا علينا جميعا ولم يفلت منّا أحد، وسلبوا كل شيء حتى ما نرتديه من ملابس. وكم توسلنا اليهم استعادة الملابس فقط لستر أجسادنا، لكنهم رفضوا ذلك وانسحبوا بسرعة ليختفوا كما ظهروا.

بعد انسحاب المهاجمين بغنائمهم وتفرق رجال القافلة لجمع شتات بغالهم عدت لألتقاط كيس نقودي حيث ألقيته، وقفلت عائدا الى نفس بيت الأحباء الذين قضيت ليلتي السابقة عندهم، حيث قدموا لي ملابس لأستر بها جسدي.

قدمنا الشكاوي للحاكم، وجاء العديد من الناس لمساعدتنا، لكن أحدا منهم لم ينجح لا في العثور على مكان اللصوص ولا في اعادة أموالنا المسروقة. وكان آخر من جاء لمساعدتنا هو ميرزا عبد الله خان جد جناب ورقاء من جهة الأم. فكانت صحبة هذا الحبيب وفرصة الاطلاع على روحانيته الرائعة شرفاً عظيماً لي. وبمرور الأيام شكرت الله في كل لحظة على فقدان تلك الأموال الفانية التي منحتني فرصة صحبة هذا الحبيب عدة أيام.

كتبت رسالة الى الأرض الأقدس باسلوب لطيف جذل، قلت فيها: "لقد أودعت كل الألواح والكتابات المقدسة بيد أحد الأحباء الثقاة حال وصولي أرض أيران حسب أوامركم. وكم تمنيت لو شملت أوامركم أموال هذا العبد لحمايتها أيضا؟".

أمضيت في تلك المنطقة أربعة شهور بذلت فيها كلما في وسعي لاستعادة ممتلكاتي دون فائدة، وكنت خلالها قائما على التبليغ، فآمن العديد من الصوفيين والتجار وأصحاب المحلات. ولم تكن تلك الانتصارات الا بسبب سرقة أموالي ومظلوميتي ومعاناتي وحرماني.

* * *

سافرت الى طهران للزيارة وكسب المعيشة والتبليغ. فذهبت ذات يوم أحد، الى قدّاس اقامته ارسالية بروتستانية في المدينة. وخلال وجودي هناك، حصلت على فرصة للكلام عن رسل القبل، ففرح منظم الجلسة كثيراً لحديثي، وطلب مني الانتظار وعدم مغادرة المكان قبل لقائه. وجلسنا بعد انتهاء القداس للتعارف ومناقشة بعض الامور، فأكرمني الرجل كثيراً لتعاطفي مع مذهبه. وسألني بعد ان احتار في طريقة كسب صداقتي ان كنت أعرف أحداً من رجال المدينة، فأجبته بأنني لم أصل طهران الا منذ فترة بسيطة ومنذ ساعتها وأنا مشغول بتنقية روحي وصفائها ولم يتسع وقتي لمقابلة أحد. فلم يزده جوابي الا فضولا لمعرفة حقيقتي. وفي النهاية اكتشف أمري بعد أن عيّن من يتجسس على أحوالي وعلم بأنني بهائي.

في زيارتي التالية له، قال لي بعد أن تردد في لقائي: "نحن نستلم من الولايات المتحدة كل عام مائة ألف تومان لنشر الديانة المسيحية. وأنت بهائي جئت لتندسّ بين جماعتنا وتصطاد المرتدين". فأجبته: "أنا لست هنا لأصطياد المرتدين من جماعتكم كما تدعي. ولكن لأتبين ان كنت تدعي الايمان من أجل المال أم من أجل الله. والآن، تأكدت من ان سعيك لأجل السلطة والمال فقط".

شعرت بعد تلك المقابلة أنني ضائع ولا أدري ماذا أفعل. فحاولت كسب بعض المال لخدمة أمر الله، لكنني وجدت ذلك مستحيلا، حيث ظهرت حاجتي للخبرة والمهارة للأنخراط في أي مهنة وأنا في تلك السن المتقدمة. كما أدركت أن العمل سوف لن يترك لي وقتا للتبليغ. لذلك أخترت مهنة نسخ الكتب لسد حاجتي ولدراسة الآثار الالهية المباركة في نفس الوقت. فشرعت في امتهان هذا المجال لكسب معيشتي.

ذات يوم، وبينما كنت جالساً، تذكرت أيام السجن في السودان حيث اعتدنا هناك على استلام لوحاً مباركاً أو أكثر كل شهر أو شهرين، وعلى دوام نقل الحاج علي والحاج جاسم لتحيات ومحبة حضرة بهاءالله القلبية لنا. فوقعت في هذه اللحظات في معضلة روحانية كبيرة، وتساءلت في نفسي وقلت: "بعد كل تلك المصائب والبلايا التي تحملناها ومنذ وصولنا الى ايران ولحد الآن لم يصلنا من حضرته لا لوح ولا رسالة؟". فأغرقتني هذه الأوهام في بحور من اليأس وسببت لي كثيرا من الكرب والغم لدرجة قاربت فيها على الانهيار.

وذات يوم وبينما كنت أستنسخ كلمات حضرة بهاءالله المكنونة وقع بصري على الآية التالية:

يا ابن الانسان كن لي خاضعاً، لأكون لك متواضعاً، وكن لأمري ناصراً، لتكون في الملك منصوراً(33).

فأدركت من فوري ان سبب كربتي لم يكن سوى جهلي التام، ومرت أمام عيني كل أحداث حياتي الماضية فتفحصتها واحدة تلو الأخرى، فلم أجد فيها سوى حقارتي وعظمة رحمة الله في كل مكان وفي كل لحظة. عندها خاطبت نفسي قائلا: "لا تتصرف مثل المتسولين الذين يتوقعون أجرا لكل عمل تافه". ولحسن الحظ استطعت التغلب على يأسي ونهضت باحساس وشعور جديد من السعادة والمسؤولية، ولم أسمح لنفسي من ساعتها بالاستسلام لليأس والتشاؤم حتى ولو تجاهلني جميع الاصدقاء. ومع ان ذلك لم يحدث فعلا، الا انه وعند أول احساس بالظنون تزحف الى داخل نفسي، كنت أوبخها بقولي: "انها غلطتك فقط". واستطعت بسبب هذا الصراع الداخلي الوصول الى عالم السكينة والرقي الروحاني اللامحدود، وانتعشت روحي من جديد وعدت لاصدقائي بحياة وروح جديدتين.

كان عدد مؤمني مجموعتنا الفقيرة صغيراً ومواردنا قليلة وبسيطة. تلفنا ضائقة مالية كبيرة. كنّا نقضي معظم ليالينا معاً، وكان بابا جان الذي يعمل بواباً في منزل أمين الدولة، يجلب لنا كل يوم غذائه الذي يحصل عليه من هناك، وبعد ان يضيف اليه قليلا من الجبن واللبن يدعونا لمشاركته وليمته البسيطة. فكانت تكفي لسبعة أشخاص. وفي بعض الأمسيات، كان يجلب معه للعشاء ماء اللحم (آب كوشت).

كان آقا محمد كريم يعمل عطاراً وأخوه الحاج محمد رحيم وأخته من عائلات الاحباء الميسورة الحال الوحيدين في طهران. وعندما كانت مجموعتنا تشعر بالحاجة الى وليمة سخيّة، كنّا نبعث الى هذه العائلة المخلصة الكريمة برسالة نعلمهم برغبتنا. فيستجاب لطلبنا بارسال الرز الايراني واللحم المشوي. وذات ليلة وفي أحدى المناسبات شاركنا الأخّوان الوليمة، وتبع ذلك الطعام اللذيذ فواكه طازجة 0 كانت جلستنا رائعة 0

* * *

الى هذه العائلة المخلصة الكريمة برسالة نعلمهم برغبتنا. فيستجاب لطلبنا بارسال الرز الايراني واللحم المشوي. وذات ليلة وفي أحدى المناسبات شاركنا الأخّوان الوليمة، وتبع ذلك الطعام اللذيذ فواكه طازجة 0 كانت جلستنا رائعة 0

* * *

حان وقت الرحيل الى المدن والقرى الايرانية لتبليغ أمر الله. وانتهجت أبسط سبل العيش لانجاح تلك الرحلة، فسافرت مع القوافل واقتصر غذائي على ما توفر من ماء اللحم والحليب. والحقيقة ان الكلمات لتعجز عن توضيح كيفية تيسير أموري وتتابعها وكأن التأييد الالهي يسرع نحوي أميالاً كلما خطوت في سبيل أمر الله خطوة واحدة. ولو تأمل العالم كله هذه المعجزة، فسيجد نفسه عاجزا عن فهم وأدراك مثل هذه النعم الالهية العجيبة. فمن أين اذن يمكننا بكلمات شكرنا المحدودة التعبير عن امتناننا لنعمائه اللامتناهية. وانني لمست وشعرت خلال جولاتي التبليغية البهائية تلك

القوة الالهية المقلّبة لكل القلوب والمتمكنة منها، فبيده فقط قوة تحويل القلوب وتثبيتها. ولا نستطيع نحن "الاطفال الضعاف" الزحف في طريق خدمته الا من خلال نعمه وأفضاله فقط. ومع ذلك يمنّ علينا ويستحسن أعمالنا البسيطة ويتوّجها بأكليل قبوله ورضاه.

تنقلت في مختلف أنحاء ايران قرابة الثلاثين عاما. ولا يمكنني الآن سرد كل ما حدث وقابلته خلالها من اعتراضات الناس ومحاولاتهم السوفسطائية واستنكاراتهم المحزنة، ولا أتذكر كل ما لاقيته من محبة ومساعدة من الأحباء، ولا ما تفوهنا به من الاجابات الملهمة بوحي من الارادة الالهية. والا لأصبحت هذه الرسالة سِفراً عظيماً.

حدث ان التقى شجاع الدولة في خراسان بالسيد فاضل قائني (نبيل أكبر) وعدد من مشاهير البهائيين. لكن بعضا من اعداء الأمر استطاعوا - مع الأسف - الالتقاء به واعطائه كثيرا من الأفكار الخاطئة عن الأمر المبارك بدعوى معرفتهم واطلاعهم الجيد عنه. ولهذا السبب رغبت في مقابلته كثيرا. يحدوني كبير الأمل في تبديد تلك التصورات الباطلة من ذهن هذا الحاكم الجبار المتنفذ. وسألت عددا من خدّامه تدبير مقابلة لي مع سيدهم عندما جاءوا لزيارتي ذات مرة، وأكدت لهم على ضرورة اتمام اللقاء بسرية تامة لطمأنته وعدم ازعاجه.

تم تدبير اللقاء وزرته لأول مرة وأخبرته أنني رجل سائح، فكان سؤاله على الفور ان كنت قد زرت مدينة عكاء، والتقيت بحضرة بهاءالله. كما سألني بعد ان رددت عليه بالايجاب، ما هي حقيقة دعواه؟ فأجبته: "يقول انه موعود جميع رسل الله"، وتلوت عليه عدة آيات نازلة من قلمه الأعلى. وقلت له في ختام اللقاء انني لا أعتبر نفسي واحداً من أتباعه الحقيقيين لكنني سأجتهد في توضيح كل شيء مستنداً في ذلك على فهمي ورأيي الخاص. لم يعجبه كلامي ورد عليّ بقوله: لو لم تكن واحدا من أتباعه لما تكلمت عنه بهذه الطلاقة ولما تمكنت من تذكر العديد من مقاطع كتاباته جيداً، انني أعلم انك واحد منهم، لذلك عليك بالكشف عن نفسك والتكلم معي بصراحة. وعندما اعترفت له بأنني أحد خدام الأمر، عاملني بلطف أكثر، وأمرني بالحضور الى مجلسه كل صباح، ولم يكن يسمح لي بالانصراف الا بعد تناول وجبة الغداء معه. وشرحت له خلال تلك الأيام دقائق وتفاصيل تاريخ ومباديء وأحكام الأمر المبارك. فانشرح صدره للأمر المبارك وآمن به واعتنقه. ثم بدأ الناس بعد ذلك في حضور لقاءاتنا بأعداد كبيرة.

وبسبب هذه الانتصارات، كتبت لحضرة بهاءالله، أوضح له اعلاني الصريح عن الأمر المبارك. فجاءني الجواب في لوح كتب باسلوب لطيف رغم اشاراته بالتحذيرات، وتفضل: "طالما انك اعترفت لي بأنك خرقت مباديء الحكمة وتكلمت عن الأمر علنا. فبذلك جعلت نفسك هدفاً للعقاب، وعليك باستلام عقوبتك". لكنه زاد من فرحي وسروري في نهاية اللوح بقوله: "ان الله دائم الرحمة والغفران". ان هذا اللوح أنذرني بوقوع حوادث مؤلمة وشديدة لي مستقبلا.

ذات يوم أخبرني صديق لي ان للحاكم سكرتيراً مثقفاً جداً وان باستطاعته التفوق على مائة شخص من ذوي العقول النيّرة الكبيرة، لكنه مع الاسف رجل ملحد وسكير ولا يؤمن بالله. وألحّ صديقي عليّ بضرورة لقاء هذا الرجل المتمكن وتحديد موعد لرؤيته.

التقيت به وبدأنا حديثنا عند الغروب واستمر طوال الليل، وخلال النقاش حاولت مراراً التكلم في موضوع الدين لكنه كان يدير دفة الحديث باصرار ولباقة الى مواضيع أخرى كلما شعر بذلك. كان استاذاً في النقاش بحق، وأعجبتني جدا براعته في ادارة نقاشنا بالطرق التي يرغب بها، وكلما ازداد في صد محاولاتي للتطرق الى موضوع الدين كلما رغبت وزدت اصراراً في تبليغه أمر حضرة بهاءالله.

فسألته بعد أن امتدت وطالت جلستنا حتى الصباح: "هل سبق لك وان قرأت شيئا من كتابات حضرة بهاءالله؟"

فأجابني على الفور: كلا.
قلت له: ولم لا؟ لديك مثل هذه المكتبة الضخمة المليئة بمختلف أنواع الكتب، ولم تقرأ أي كتاب؟
أجاب: أحب العيش بحرية تامة.
استجمعت شجاعتي وأنا أشير الى كتبه، وقلت له: أعتقد ان هذا ليس إلا تحيزاً صرفاً، فأنت لا تؤمن بمحتويات كل هذه الكتب الموجودة هنا، ومع ذلك تملكها وتقرأها، فلم تمتنع عن معرفة بعض الشيء من أدبياتنا، ان كنت غير متحامل على المظهر الالهي وكتبه كما تدعي.
قال: لقد تغلبت عليّ أخيراً وطرحتني أرضاً بعد طول سجالنا، أنت على حق. ابعث لي بكتاب وسأقرأه.
وبعد مدة، رأيته ذات مساء بعد أن استلم كتاب الايقان. فأخبرني انه قرأ الكتاب عشر مرات على الأقل، وقد تملكه شعوراً جامحاً من كلماته المنّزلة ومن كاتب هذه التعابير القوية والحجج القديرة. واطلعني على رغبته في استنساخه. لكن أحد الاحباء وفّر عليه الاستنساخ وأهداه نسخته الخاصه بدلا عن ذلك.
بعد أن اعتنق هذا الرجل الأمر المبارك، قام على تحطيم كل ما لديه من براميل النبيذ وتوقف عن تعاطي الأفيون وبقية المخدرات وأصبح من مؤيدي الدين البهائي الأقوياء بدرجة لم يتمكن من اخماد نار حماسه شيء وبلّغ الأمر المبارك لعائلته وللكثيرين غيرهم وقابل وتحدى علناً جميع مشاهير رجال الدين في المنطقة، ولم يهتم أو يعير اهتماماً لنصائحنا ولكثرة تثبيطنا لهممه ومحاولاتنا للحيلولة دون تبليغاته العلنية أبدا.
بعد أن فقد علماء المدينة الأمل في التفاهم معي، ذهب كبيرهم ويدعى ملا كاظم الى الحاكم شجاع الدولة وطلب منه ابعادي أو سجني. لكن الحاكم بدلا من ذلك اقترح عليه الحضور للجلوس معي ومناقشتي وقال له: ان لم يستطع مجابهتك ووقف تحدياتك فسأوافق على انزال أية عقوبة تقترحها حتى ولو كانت اعدامه. لكني لو أبعدته الآن فسيقول الناس عني انني عاقبت شخصاً بريئاً، وأنا لا أريد أن أتهم بمثل هذا الذنب العظيم.
وافق الملا كاظم على الاقتراح وتدبر الحاكم أمر لقائنا بحضوره شخصياً، وحضر العديد من علماء الدين وموظفو الدولة وبعض الشخصيات الذين وقفوا يتابعون مجرى الأحداث ويراقبونها.
فابتدأت الحوار بطرح السؤال التالي:
لنفرض ان يهودياً يؤمن بما جاء في العهد القديم ويدعي بوجود أكثر من خمسين دليلاً في كتابه تثبت تأكيد الله على خلود الشريعة اليهودية وعدم نسخها ويعتبرها دليله الذي يستند به على عدم ايمانه بالسيد المسيح. كما ان هناك أيضا رجل آخر مسيحي يدعى ان العهد الجديد ينص صراحة على امكانية زوال الأرض والسماء وعدم امكانية زوال كلمة واحدة من الانجيل وهو بهذه النصوص يستند في انكاره لأي شخص جاء برسالة من السماء بعد السيد المسيح. والسؤال هو، كيف يحكم الله بين مثل هؤلاء الناس ويحاسبهم؟ وعلى أي أساس سيستحقون غضبه وعقابه.
عندما أنكر العلماء في جوابهم وجود مثل هذه الاشارات في الكتب السابقة، أمرت باحضارها وأشرت الى الصفحات المطلوبة. فردوا عليّ في جوابهم ان هذه الكتب قد حرّفها وبدّلها أتباعها. فأجبتهم بعدم امكانية ذلك، لأن من يعتقد بقدسية كتاب ويؤمن بنزوله من الله لا يقبل بتغيير كلمة واحدة فيه. هذا بالاضافة الى عدم قبول الناس العقلاء مثل هذا الادعاء، اذ انه حتى لو وحّد الكهنة والملوك قواهم لتبديل كلمة واحدة منه فسيكون ذلك مستحيلا عليهم، لأنه كتاب من الله ولا يحتفظ به في مدينة أو دولة واحدة فنسخه منتشرة في كل مكان ، وان تمكن أحد الحكام الأقوياء

من تبديل أو تغيير بعض الكلمات الموجودة في كتب مملكته، فماذا عن بقية نسخ الكتاب المنتشرة في بقية الدول وقارات العالم الأخرى؟ اضافة الى كل ذلك يوجد في جميع تلك الكتب المنزلة وعداً قاطعاً من الله يقول: "انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون". ولقد أشار سيدنا محمد في مواقع كثيرة من القرآن الى اليهود والنصارى وشهد بنفسه على صحة ما في أيديهم من كتب.

وعندما لم يستطع العلماء دحض هذه البراهين تساءلوا: لماذا تتكلم فقط عن أيام الاسلام الأولى وعن الكتب القديمة المقدسة؟

فأوردت لهم جوابا على ذلك، شواهد عديدة مشابهة من القرآن تشير الى القرون الماضية والى رسل القبل.

قال الحاكم: ان براهينه قاطعة ولا يمكنكم نكرانها. فغضب الملاّ كاظم حال سماعه ذلك، وهمّ بترك المكان وهو يقول: ان الحاكم يساند البابيين.

لكن الحاضرين أمسكوا به وأعادوه الى مجلسه، فسألني مرة أخرى بعد أن استقر في مجلسه: وماذا عن المعجزات؟

قلت له: لقد أوضح سيدنا محمد في القرآن الكريم ان كلمات الله المنزلة هي معجزته بحد ذاتها.

قال: وماذا عن القمر الذي فَلَقَهُ محمد(ص) الى نصفين بحركة من اصبعه؟

أجبته: لقد أعلن حضرة بهاءالله ان النجوم تساقطت على الأرض عندما كان في مدينة أدرنة.

وهنا قطع الحاكم نقاشنا وقال: هذا صحيح، كنا على رأس جيش كبير نقطع أراضي وسهول خراسان 0 وفجأة وفي أثناء الليل بدأت النجوم تتساقط على الأرض بأعداد هائلة أمام أعيننا بحيث تحول ظلام الليل الى نهار، واستمر ذلك حوالي الساعتين.

فرد عليه الملا كاظم باسلوب ساخر: ان كانت النجوم قد تساقطت فعلاً كما تقول! فماذا عن هذه التي نراها في السماء الآن؟

فأجبته بأدب: ان كان القمر قد شق كما تقول، فما هو هذا الشيء الكامل الدوران الذي نراه في السماء؟

وهنا غصّت القاعة بضحكات الحاضرين. لكن الحاكم أشار عليّ بعدم التمادي أكثر من ذلك وطلب مني الكف عن الكلام.

قال الحاكم، لقد اجتمعنا هنا لتوضيح الأمور وتبسيطها، ولكنني أرى الآن انها قد تعقدت أكثر من السابق، وأخشى أن يهتز بذلك ايمان بعض الحاضرين من المسلمين الأفاضل.

فأجابه الملا كاظم بحدة: نعم ان هؤلاء الاشخاص أساتذة في تضليل وزعزعة ايمان الناس، لقد حفظوا عَشْرُ آيات متشابهات من القرآن وعشرين من الأحاديث الضعيفة وعقدوا العزم على اضلال الملّة.

فقاطعته وقلت: رغم انني قد منعت من الكلام، الا انني استمحيكم عذراً في اضافة سؤال أخير. ما دام الأمر كما تقول، فلماذا لا تتلو على الحاضرين بنفسك، الآيات المحكمات والأحاديث الصحيحة وتبعد الناس عن الضلال؟ فضحك الحاضرون مرة ثانية.

استمر هذا النقاش لمدة سبع ساعات، نهض بعدها العلماء لمغادرة المكان. واستطعت رؤية المكائد والمخططات الشريرة وهي تتحرك في عقولهم ضدّ البهائيين.

جلست أزن الأمور وأحسبها في عقلي، وقلت في نفسي: "لو اني بقيت هنا فسأوقظ مارد الحقد في النفوس، وان انسحبت فسيعتقد الناس اني جبان. فما عساي أن أفعل؟

أخيرا، قررت البقاء والاستعداد لمواجهة أسوأ الاحتمالات. كنت متأكدا ان ما سيحدث سيؤدي ولا شك الى رفعة وسمو وانتشار الأمر المبارك في تلك المناطق. واعتقدت بسبب قوة وسطوة الحاكم الذي كان من أقوى حكام مقاطعات ايران، عدم تجرؤ أحد على اثارة الغوغاء من الناس.

* * *

زحف الناس الى بيتي كالجراد عند أول اشراق شمس صباح اليوم التالي من كل الجهات، وهم مسلحون بالعصي والهراوات. فلم أجد بُداً من ارتداء ملابسي والخروج لمواجهتهم، معتقدا انني - بهذه الطريقة - سأحافظ على ما في بيتي من كتابات ومخطوطات مقدسة. لكني وبمجرد ظهوري أمامهم هاجمني ما لا يقل عن مائتي ذئب ولم يتركوا لحظة أو فرصة دون ضربي ولعن ديني وشتمي. سحبوني بعدها الى المدرسة الدينية، وهناك وجدت الملا كاظم واقفا ينتظرني تحيط به الجموع الغاضبة. ففكرت بسرعة في طريقة للتخلص من هذا العذاب ولو فترة قليلة. فطلبت كوباً من الماء وأنا متأكد انهم لن يمنعوه عني طالما انهم من المسلمين الشيعة(34). فصدق ظني وأحضروا لي كوب ماء، لكن الملا كاظم صاح بهم: "اغلقوا فمه ولا تعطوه شيئا". وتقدم مني ليضربني على رأسي بعصاه الطويلة، ثم التفت الى الجموع من حوله وقال: "هذا ليس كافياً. خذوه وأرجموه". فسحبوني الى خارج المدينة وأنا أتلقى كل أشكال اللطم والضرب بالعصي والحجارة. وفي الحقيقة لا يعلم أحد غير الله ما لاقيته من عذاب وأذى خلال الطريق. أخيرا أدخلوني في غرفة صغيرة خارج أسوار المدينة وحبسوني فيها. ثم عادوا بعد ساعة ليقولوا لي بأن الملا كاظم أمر بتسليم كتبي وأوراقي اليهم مقابل حصولي على حريتي. وان امتنعت عن ذلك فقد أمرهم بتمزيقي ارباً اربا.

لم يمض وقت طويل حتى جاء الملا كاظم الى مكان حجزي بنفسه، ووقف أمام الحشود يشترط عليّ انسحابي واختفائي الى حيث أشاء خلف افق مدينتهم في مقابل حجب الناس ومنعهم عن مهاجمتي. فلم يكن أمامي من خيار، وبدأت بالسير الى خارج حدود المدينة، بينما وقف الجميع يراقبون انسحابي واختفائي خلف الأفق.

دخلت قرية صغيرة وقت الظهيرة تقريبا، وأنا شبه عار والدماء والجروح تغطي كل انحاء جسمي، فاعتقد القرويون انني هارب من سجن الحكومة وأشفقوا على حالي وقاموا بغسل دمائي وتطبيب جراحي وقدموا لي الشاي والطعام وقرروا اخفائي داخل قريتهم.

وعند منتصف الليل سمعت وقع حوافر خيل وصوت فرسان أرسلهم أصدقائي للبحث عني. وعندما ظهرت لهم أخبروني ان الحاكم أرسل عشرين فارساً في أثري الى مختلف الجهات لمساعدتي ومرافقتي الى مكان آمن، وأعطوني عباءة وبعض المال. فسلمت المال الى رئيس القرية وشكرته هو وأتباعه على كرمهم وحسن ضيافتهم ثم ودعتهم وانصرفت.

أخبرني الفرسان بضرورة الاسراع للوصول الى مدينة قوجان قبل شروق الشمس. وبما انني ما زلت أعاني من آلامي الفظيعة ومن الارهاق التام ومن عدم مقدرتي على امتطاء حصان والجري به بسرعة كبيرة، فقد قرروا ربط جسمي الى جسم الحصان والاسراع بنا نحو غايتنا.

وصلنا الى منزل ميرزا حسين، وعندما شاهدني أفراد عائلته وأنا في تلك الحالة البائسة لحظة وصولي منزلهم انفجروا في بكاء شديد، لدرجة انني لم أستطع وقف دموعي عن الانهمار والبكاء معهم. وبعد أن هدأنا، أخبرتهم بتفاصيل القصة كاملة وكيف ان جميع هذه الاحداث سبق وان ذكرها حضرة بهاءالله في لوح استلمته من حضرته في وقت سابق، أخبرني فيه بأنني ملاق جزائي وعقابي لا محالة.

وفي المقابل، أخبروني عن ما وقع من أحداث في المدينة بعد خروجي منها وعن هياج العوام الجنوني، وكيف بات جميع الأحباء ومنازلهم تحت خطر الاغارة والمهاجمة وعن غضب شجاع الدولة الشديد واتهامه رجال الدين بالتآمر ضده، وكيف أرسل لهم رسالة يطالبهم فيها بشرح وايضاح أسباب الأحداث. لكنهم أثبتوا كذبهم وجبنهم في رسالتهم الجوابية عندما قالوا: انهم لا يعلمون شيئا عما فعله وارتكبه الناس. لكن الحاكم لم يقتنع بهذا الجواب الكاذب وأرسل جنوده الى المدينة وأمرهم باغلاق المدرسة الدينية ومعاقبة ساكنيها واحضارهم الى مجلسه. فجيء بخمسة وثلاثين من رجال الدين الى بيت الحاكم حيث أمر بضربهم جميعاً طوال ذلك اليوم ثم أودعهم السجن. كما كتب الحاكم الى ميرزا حسين الذي كنت التجيء في بيته، ناصحاً اياه اصطحابي والتوجه الى منزله قبل شروق الشمس، لاعتقاده بعدم قدرتنا على الصمود في وجه هجوم الملاوات وسكان المدينة الشرسين. فتحركنا متوجهين الى بيته، وهناك شاهدنا المشاغبين وهم مودعين داخل السجن. فانتشرت أخبار عودتنا وزيارتنا للسجناء في كل مكان، وجاءني حوالي أربعمائة شخص من أقارب السجناء وهم يبكون ويتوسلون حتى أتوسط لاطلاق سراح الملاوات. لذلك ذهبت الى الحاكم وسألته السماح للسجناء بالعودة الى بيوتهم. فاستجاب لطلبي بكرم بالغ.

لكن نار الاضطهاد والاضطراب شبّت والتهبت في كل مكان. ووصلت الى أصحاب الخانات انذارات بعدم السماح لي بدخول خاناتهم، وسيتعرض كل من يخالف هذه الأوامر ويقوم بايوائي للغرامة والعقاب الشديد. وسمعت صوت صاحب الخان الذي أسكن في احدى غرفه وهو يسأل الجنود، أرجوكم أخبروني أيّ نوع من الرجال هو، أطويل أم قصير، شاب أم عجوز؟ وكنت أسمع الجواب يأتيه دائماً، عليك بعدم ايوائه فقط.

تركت الخان وهمت على وجهي أطوف البلاد بلا مأوى. وأدركت حيثما التجأت بعظم الخطورة التي أتسببها من وجودي في بيت مضيفي. فتأرجحت بين الخوف والأمل في العثور على مأوى لا يسبب خطرا على حياة الأحباء، والخوف من العواقب الوخيمة المحتملة الوقوع على جامعاتهم الصغيرة في تلك المدن والقرى الصغيرة التي التجأت اليها. في النهاية قررت التوجه الى طهران.

* * *

في طهران كان الملا رضا من أشهر الوعاظ المعروفين هناك وكانت له في كل يوم خطبة في مسجد الشاه، ولم يكن له ولا لأتباعه موضوع أكثر اثارة وأكثر مدعاة للغبطة والسرور من انتقاد وذم الدين البهائي وأتباعه. ونتيجة لذلك، فقد سرد لهم كل أنواع القصص الخرافية والوهمية الكاذبة وبلغت به الجرأة درجة انه حدد موعد ظهور القائم الموعود الامام المهدي بسنة 1300 هجرية (1883 ميلادية).

وصادف ان كان هناك رجلا من مشاهير البهائيين يدعى سيد مهدي، اعتاد حاكم طهران اظهار عظيم الاحترام والتقدير له. فعلى سبيل المثال حدث ذات مرة عندما أراد السيد مهدي مغادرة غرفة الحاكم أن أسرع الحاكم بنفسه الى باب غرفته وانحنى ليلتقط حذاء السيد ويضعه في قدمه قبل توديعه. وفي الحقيقة لم يسمع بمثل هذا الاحترام والتقدير في أيام ملوك وأمراء القاجاريين المعارضين للبهائيين تماما.

وعندما حضر السيد مهدي في زيارة له الى طهران شاهدت عظمة موكبه المهيب وكثرة مستقبليه من الاحباء، فعلقت على ذلك بقولي: "ليذهب أحدكم ويخبر الملا رضا عن وصول مهديه المزعوم". فذهبت تلك الكلمات كنادرة وطرفة بين الاحباء لفترة طويلة. لكن مع الأسف! تبدلت نفسّية هذا السيد وابتعد بالتدريج عن أمر الله مكتفياً بالشؤون المادية. ومع ان الأحباء كانوا في تلك الأيام يعشقونه ويتفاخرون به، الا اني لم أشاهد فيه ساعتها سوى الغرور والتكبر. ولم احتمل ذلك، فتركت طهران الى مناطق اخرى.

في مدينة قم، كان شرف لقاء عائلة الأخوين نداف، الذين اتفقا على العمل أطول فترة ممكنة خلال النهار لزيادة دخلهما كي ينفقوا بعضا منه في حاجاتهم الضرورية وليقدموا الباقي لأمر الله رمزا لامتنانهم في معرفة وقبول هذا الأمر البديع. كانا أميين لايعرفان القراءة والكتابة، لكن كان واضحا ان قلبيهما اقتبسا الحكمة الحقيقية بفضل الله. أما بقية أفراد عائلتيهما فلم يكونوا بهائيين، لكن الأخوين فعلا كلما في وسعهما لتحبيب الأمر اليهم. فمثلا عندما يرغب شخص مثلي بزيارة منزلهم، يذهب الأخوان الى السوق لشراء بعض الهدايا لتقديمها الى أهل بيتهم، ويقولون: "لقد اشترى صديقنا هذه الهدايا لكم". وخلال نفس العام الذي كنت ضيفا في منزلهما، كانا يعّدان نفسيهما للذهاب الى الأرض الأقدس لزيارة حضرة المولى المحبوب.

نزل ذات يوم في احدى خانات مدينة قم وهو في طريقه من طهران الى مدينتي يزد وكرمان العالم النحرير والمؤمن الشهير الحاج سيد جواد كربلائي. فذهب الاخوان نداف لزيارته في غرفته ساعة العشاء وهما يحملان معهما بعض الهدايا. وبعد اللقاء والتحية شرعا في الحديث عن الأمر المبارك، فحذرهما السيّد من التكلم بصوت عال وأشار عليهما بسلوك سبيل الحكمة، قائلا: "من المحتمل ان يسمعنا بعض الناس ويحرضون العامة ضدنا". فأجابه أحد الأخوين: "غداً.. ستكون أنت في طريقك الى بلدتك، كما أن بقية ضيوفنا سيتركونا قريبا، ولن يبق غيرنا هنا في هذه المدينة. اذن.. نحن من يجب عليه اتخاذ الحيطة والحذر. لأن الناس يعلمون بأننا بهائيون، لذلك دعنا نغتنم فرصة لقائك ونسمع أخبارك ونصغي الى مواعظك. وبهذه الطريقة سيعرف الناس حقيقة الأمر المبارك بالتدريج. وماذا نستطيع أن نفعل لهم ان قاموا ضدنا؟ انها مشيئة الله، فمن خلال المصاعب والبلايا والامتحانات يعلن الله أمره، انه هو المقتدر ونحن أضعف خلقه وأحقرهم شأناً، فهل باستطاعتنا الوقوف تلقاء ارادته الجبارة "؟

وبينما كان السيد مندهشا من فصاحتهما وعمق ادراكهما، قال الأخ الثاني: "تذّكر الأيام الاولى لدعوة الرسول محمد(ص) لقومه، ان أول من قام ضده هم أقرب أقربائه وأفراد عشيرته من قريش. فذات ليلة قرروا دعوة الرسول الى مجلسهم واستقبلوه بكامل الاحترام والتقدير والاجلال، وبعد أن استقر في مجلسه، قام أحد الحاضرين وخاطبه باستخفاف كبير، قائلا: "ان عشيرتنا هي أشرف عشائر مكة وبيدنا شرف امتياز خدمة الكعبة. وبسبب هذه الوصاية تحترمنا كل قبائل العرب. والآن 00 ان ما تدعيه سيكون سبباً في هدم هذا البناء وسيخلق اضطراباً عظيماً يقلل من مقاماتنا الرفيعة وزعامتنا وشرفنا تماماً. لذلك نسألك ان تعطف على عائلتك وعشيرتك وقومك وتنسى دعواك. وإلا فسوف لن تجني من ذلك سوى العذاب والفاقة والخذلان وسوء العاقبة في الدنيا والآخرة".

بانتهائهم من كلامهم، وجدوا سيدنا محمداً(ص) يبكي والدموع تسيل على وجنتيه، فاعتقد المتعجرفون من قريش ان ما يسيل من مقلتيه من دموع ما هو الا علامة على الضعف والاذعان لطلباتهم المخزية. ولتأثرهم من منظر دموعه سألوه عن سبب بكائه. ففتح الرسول الكريم فمه المبارك وألقى عليهم جواهر الحقائق الخالدة، وقال: "انني أؤمن بأن الله مطّلع وجبار، وسوف لن أدعو الناس لشيء ضد ارادته ورغبته ومشيئته، لقد أمرني بالقيام والنداء وانني من اصطفاه لرسالته، وما أنا الا بشر ضعيف مقيد بقبضة قدرته. فكيف يمكنني عصيان أوامر ملك الملوك والحاكم المطلق لهذا العالم والعالم الأعلى؟"

أثرت بيانات الأخوين نداف العميقة في جميع الحاضرين، واستفدنا منها جميعا بدرجة كبيرة. وكما قالا، فقد غادر الجميع مدينة قم كل الى غايته، وبقيا هما واقفين بثبات أمام هجمات الأشرار الظالمين من أهل مدينتهم لأكثر من أربعين عاما، ولم تهزهم أبداً عواصف الاعتراض التي أثارها المعاندون تجاههم، وكانا يعلنان وسط زوابع

الاتهام "نحن مؤمنون". وبقيا صامدين ثابتين مستمرين على التبليغ وعلى استقبال جميع البهائيين الذين اجتازوا مدينة قم.

* * *

لتصوير خطورة الظروف التي عاشها وخدم في ظلها المؤمنون الأوائل، أود أن أورد لكم قصة أخرى حدثت في مدينة قم. ففي احدى رحلاتي، أخذني الأخوان نداف عند أحد أصدقائهما المسلمين، وكان شخصاً روحانياً حقيقياً ومستقيماً مخلصاً، لكنه لا يقبل أي شيء لا يوافق عليه أو يرضى به علماء الدين. فقررنا ملاقاة هذا الرجل في حديقة بعيدة عن ضوضاء المدينة، وعند اللقاء ساد حديثنا الود والاحترام المتبادل، وخلال الحديث أشرت من بعيد الى شيء له علاقة بموضوع الدين، فانتبه صاحبي الى مقصدي وقال بلطف: "ان ما ذكرته صحيح، لكن البت في مثل هذه الامور يرجع ليد العلماء، فدعنا نتكلم عن البلدان والطقس وعادات القبائل والشعوب".

سألته: "هل بامكانك اذن، نقل سؤال مكتوب الى العلماء وسؤالهم جواباً مختصراً ومناسباً له؟".

فأجاب: نعم. ان تكرمت بتدوينه.

أخذت ورقة وسلّمتها له بعد ان كتبت عليها: "ما هي البراهين التي تثبت لنا ان القرآن معجزة دائمة للرسول الكريم؟".

فأخذ ضيفنا المسكين سؤالنا المكتوب وقدّمه للعلماء يطلب جوابا له.

وبمجرد أن قرأ العلماء تلك الجملة الوحيدة، غضبوا من صديقنا على الفور وهاجموه وضربوه ولعنوه وحقّروه واتهموه بأنه بهائي وحاولوا سجنه.

فأيقظ ضعفهم وظلمهم وعجزهم عن اجابة سؤال بسيط كهذا، قلب وضمير هذا الباحث الطاهر، واعتنق أمر الله على اثر ذلك.

* * *

كما حدثت القصة التالية في مدينة كاشان حيث يعيش العديد من البهائيين العاملين بمهنة الحياكة. وبسبب عدم وجود سوق رائجة لمنتجاتهم في تلك الأيام، كانوا يعيشون في فقر شديد. وكان جناب غلام علي من أشهر شخصيات تلك الجماعة، ومع انه لم يكن غنيا الا انه كان مستعدا في كل وقت لاقتسام طعام بيته مع الأحباء وضيوفهم، وكان طبق الحساء هو الصحن المفضل في بيته حيث يمكنه اضافة كمية من الماء اليه كلما دخل عليه ضيف جديد بصورة مفاجئة. فيجلس الأحباء لتناول الحساء مع الخبز بينما يقف المضيف المشهور بلطفه وظرافته وهو يروي لهم القصص الطريفة. وغالبا ما كنّا نسهر في بيته حتى شروق الشمس.

ورغم عسر حالة أحباء كاشان المادية الا انهم اهتموا بغيرهم من الفقراء وخدموا المحرومين والعجزة والأرامل والغرباء وكانوا مثالا للآية القرآنية الكريمة: "ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة"(الحشر 9/59)، والتي تحث اتباع الرسول(ص) على تفضيل غيرهم على انفسهم والتضحية بكل شيء من أجل صحبهم.

* * *

في شيراز كان لي شرف لقاء ثلاثة من الأحباء الروحانيين الأفاضل اللامعين كالنجوم في أفق الاتحاد. كانوا مثل روح واحدة في ثلاثة أجساد، يقتسمون في معاملاتهم التجارية أرباحهم وخسارتهم معا، كما كانوا يشاركون في خدمة الأمر المبارك والأحباء الأعزاء بنفس الكيفية. وعندما توفيّ غلام حسين وسيد علي، أحضر جناب دهقان عائلتيهما وجعلهما تحت رعايته، واعتنى بجميع أفرادها بمحبة واخلاص ووفر التعليم للاطفال أكثر مما تمتعوا به خلال حياة آبائهم. لقد كان مؤمنا ثابتا في الأمر، وضحى بكل ذرة من وجوده في سبيل عهد وميثاق الله. ورغم انه استضافني في منزله بغاية المحبة والتقدير لأكثر من سنة كاملة. فقد تطوع لدفع تكاليف رحلاتي التبليغية داخل ايران.

* * *

سمعنا ذات يوم ان الجنود ألقوا القبض على جناب ورقاء(35)، وهو في طريقه الى شيراز وأعادوه الى اصفهان. فلم يحتمل أحد الأفنان(36) ويدعى سيد أحمد نبأ هذا الاعتداء الظالم الذي أحزن جميع الأحباء في كل مكان. وكتب يطلب مني جمع عدد من البهائيين والتوجه بهم الى روسيا لتقديم شكوى ضد هذه المعاملة الوحشية التي يلقاها البهائيون في ايران. فبعثت على الفور برسالة جوابية له أوضحت فيها مخالفة هذا الاقتراح لتعاليم حضرة بهاءالله ونصوصه الواضحة. وعلينا كبهائيين اطاعة حكومتنا وقبول قراراتها. ولو حدث وعلم أعداء الأمر بهذا الاقتراح فسيقع جميع الاحباء في خطر عظيم وخاصة الأغنياء مثلك.

فكتب لي سيد أحمد رسالة أخرى، قال فيها: "انني على علم تام بخطورة اقتراحي، ولكنني سأكون سعيداً وراضياً بتضحية نفوسنا جميعاً في سبيل أمر الله. وبالتأكيد ستصل أخبار تلك التضحيات مسامع الكثيرين وستكون سبباً في انتشار الأمر الالهي في كل الجهات".

فعدت وكتبت له موضحاً: "لا يمكن لأهل البهاء الاعتقاد ان تضحية الأرواح هي مسألة تقع ضمن اختياراتهم الشخصية. ان الشهادة نعمة الهية ولا يمكن الحصول عليها الا بفضل ومشيئة الله".

* * *

مضيت في سفري وترحالي حتى وصلت مدينة يزد، وهناك خضت تجربة روحانية ممتعة بلقاء جناب "أفنان كبير" خال حضرة الباب الذي كان يشبهه كثيرا في الأخلاق والخلق ويعيش تحت رعايته بقية الأفنان. اشتهر جناب أفنان كبير بصدقه وأمانته وعطفه وطهارته وكرمه ومروءته، وآمن العديد من الناس نتيجة لذلك. ومع ان الجميع يعلمون انه من أتباع الأمر المبارك الا انه بقي أكثرهم ثقة واحتراما في منطقة يزد، وكان يبجله موظفو الحكومة والعلماء لدرجة انهم يحيلون اليه أعقد القضايا وأصعبها لابداء رأيه الذي لا يخالفه احد.

استلم الأفنان في مدينتي شيراز ويزد لوحاً من حضرة بهاءالله يظهر فيه رغبته في استقرار الأحباء في مدينة عشق آباد في روسيا. فاستجاب اثنان لنداء مولاهم من اساتذة المعمار وتوجها الى عشق آباد وعقدا العزم على بناء خان ودور سكنية ومحلات لحضرات الأفنان. فرافقتهم في سفرهم، عسى ان أستطيع الخدمة في شيء ما.

مررنا ونحن في طريقنا الى عشق آباد بمدينة فاران حيث يسكن مير محمد الشهير، الذي كان وعائلته الكبيرة محور نشاط تلك المدينة، لذلك تمتع الأحباء بالحماية والسلام تحت رعاية جنرال النور المحنك هذا. وحدث في تلك المدينة ان استلمت جواب رسالتي التي بعثتها من شيراز. حيث أجابني حضرة بهاءالله بلوح مبارك أثنى فيه على أخلاق سيد أحمد وعلى روح التضحية عنده. وأجاب على اقتراحه السابق بكلمة "لا". كما شجع المعمارين على الذهاب والاستقرار في عشق آباد وخدمة الأمر. أما بالنسبة لي فقد أمرني بعدم التوجه الى عشق آباد أو اصفهان أو طهران لخلو ذلك من الحكمة. وفي المقابل، نصحني الأحباء كذلك بعدم الذهاب الى يزد أو شيراز لاحتمال التسبب في اثارة القلاقل في تلك المناطق.

فكتبت مرة أخرى التماسا الى الأرض الأقدس، قلت فيها: "مولاي 00 لا أعرف ماذا أفعل!! ان طهران واصفهان وعشق آباد ممنوعة عليّ بأمرك. وشيراز ويزد بأمر خدامك الثابتين".

كنت في حيرة من أمري، فأبواب كل الأقاليم مغلقة في وجهي. فرحت أطوف حول اقليم خراسان وأعيش على كرم الأفنان، وأعلم انه لا سبيل للخلاص من هذا المأزق الا بترك ايران والتوجه الى عكاء لمحضره المبارك.

كتبت احدى اماء الرحمن المخلصات القاطنات في طهران الى حضرة بهاءالله رسالة تسأله فيها عن امكانية الزواج مني. فجاء الجواب يأمرني فيه بالسفر الى طهران للزواج منها. وجاءني في اللوح الثاني اجازة السماح لي بالتوجه الى الأرض الأقدس. وخلال الخمسة عشر عاما من زواجنا، خدمتني امة الله المخلصة تلك بنكران ذات وتواضع كبيرين لدرجة أني أشعر بالخجل عند ذكر ذلك. كانت مشتعلة بنار محبة حضرة بهاءالله.

شددت الرحال لزيارة الأرض الأقدس وكان شوطا من رحلتي عن طريق البحر. فقابلت على ظهر السفينة أحد سكان مدينة عكاء الذي راح يكلمني باستمرار عن شخصية عباس أفندي وعن أخلاقه الفريدة. وأخبرته من ناحيتي خلال الحديث عن كثرة أتباعه في ايران مع انني طلبت منه الاستزادة من أخباره. فتشجع على سرد المزيد من الحكايات عن حضرة عبدالبهاء وامتدحه كثيرا لدرجة أني قلت له: "اعتقد انه عليّ الذهاب الى عكاء لزيارة هذا الشخص العظيم". وفور رسوّ السفينة على ساحل أرض الأقدس، انطلق الرجل الى حضرة عبدالبهاء ليقول له: "كلمت أحد الايرانيين عن الأمر وهو قادم لزيارتك، ومن المؤكد انه سيصبح بهائيا".

* * *

هيأت نفسي للمائدة الروحانية العظيمة قبل تشرفي بمحضر الجمال المبارك. وكررت لعدة مرات في قلبي وعقلي: "هذا هو اليوم الذي بشرت به كل رسل الله. هذه هي المدينة التي امتدحها ومجدها داوود. هذا هو سهل شارون الذي اشتاق له كل قديسي القبل. وها أنت هنا تحمل معك كل ذنوبك وخطاياك".

عندما وقعت عيوني الظمآنة على وجه سيدي ومولاي ساعة تشرفي بمحضره المبارك. غرقت في شعور يصعب وصفه للأحباء، وأصبحت كأخرس عجز عن وصف حلم جميل شاهده.

استفسر مني حضرة بهاءالله عن حال أحباء ايران. وبعد أن منحني القدرة والقوة للتكلم في محضره. قلت: "رغم اختلاف جنسيات الأحباء الأعزاء وتعدد اصولهم واختلاف معتقداتهم وأفكارهم وتباين درجات أفكارهم. الا انهم متحدين في شيء واحد، وهو الحصول على مرضاة الله. انهم يلقون في السجون ويكبلون بالاغلال ويواجهون العذاب والاضطهاد على الدوام. لكنهم يظلون ثابتين راسخين آملين مرضاة جمال القدم".

* * *

ذات ليلة، تكلم حضرة المولى المحبوب عن شخصية ملا علي جان الذي سبق لي شرف لقاء هذا الروح المنور أثناء تجوالي في مقاطعة مازندران، حيث اكتشفت ان هذا المؤمن قد بلّغ أكثر من خمسمائة شخص في مدينة ماه فروزك والمناطق المحيطة بها، وثقّفهم وأرشدهم وعلّم نسائهم كيفية تغطية رؤوسهن وطريقة ارتداء الملابس البسيطة المحتشمة. كما علم الرجال ارتداء الملابس النظيفة الأنيقة ومنعهم من استعمال الكلمات البذيئة غير اللائقة تماما، وطلب من كل عائلة تخصيص غرفة مناسبة للتعبد والصلاة في بيوتهم، واشترط عليهم جميعا تنظيف أنفسهم وملابسهم بعد عودتهم من اعمالهم اليومية وتادية صلواتهم. كان يدعو الأحباء الى بيت أحدهم بالتناوب للاجتماع بعد العشاء للتداول في المسائل الأمرية، واختار عددا منهم ليعلموا ويثقفوا بقية المؤمنين. وكانت زوجته وأولاد أخيه الثلاثة يساعدونه في استنساخ الألواح وترتيلها بألحان وأصوات جميله خلال الجلسات. ورغم اشتهار ثقافة أحباء مدينة ماه فروزك بين الناس بدرجة كبيرة، الا ان علماء المدينة لم يجدوا أدنى سبب للتذمر من تصرفاتهم.

لقد فتن ملا علي جان بمحبة الله، وكان كلما سمع ترتيل أحد الألواح في مجالس الأحباء، اعتبرها دعوة له للعودة الى خالقه. وغالبا ما كان يخاطب نفسه ويقول: "علي

00 علي 00 أما زلت جالسا هنا؟ أما زلت في بحبوحة العيش؟ ان سيدك يناديك. فلماذا لا تسرع الى ميدان الفداء؟ لماذا لا ترفع صوتك في حمده وثنائه؟"

وجاء اليوم الذي القي فيه القبض على الملا علي جان بسبب فتوى أصدرها العلماء. وسيق مكبلا بالسلاسل الى منزل كامران ميرزا، أحد كبار موظفي الدولة في طهران. لم يكن هذا الرجل يرغب في أذى ملا علي جان، وقال له وهو يتقدم نحوه: "جئتك بأخبار سارة! ان أخبرتني الآن انك لا تعلم شيئا عن هذا الدين، فسوف يطلق سراحك على الفور ويسمح لك بالعودة الى منزلك. وفوق ذلك سيخصص لك راتباً ثابتاً وملابساً خاصة مزينة بالشعار الملكي ولقباً من الشاه. فأرجوك ان تعطف على نفسك وعلى أولادك".

أجاب ملا علي جان: "سوف لن أوافق على هذه الصفقة الحقيرة ولن أقايض ديني بالذهب، ولا حياة الخلود بهذا العالم الفاني. ان البلايا في سبيل الله هي أكثر قدسية عندي من كل هذا العالم الفاني".

أرسل ملا علي الى أحدى ساحات طهران للأعدام. فكان يهرول وهو تحت وطأة ثقل الأغلال مما أعجز الجلاد عن مجاراته واللحاق به. ونتيجة لشجاعته ولسروره العميقين وثباته التام، انجذب الى الأمر المبارك العديد من الناس ممن حضروا مشهد اعدامه.

أما زوجته علوية خانم، فنالت حصتها من العذاب أيضا، اذ اعتقلها الحاكم بعد استشهاد زوجها، وقال لها: "كيف تجرأين على الادعاء بانك فاطمة بنت الرسول؟".

فأجابت بشجاعة نادرة: "أنا لم أدع ذلك أبداً. لكنك الآن وبعد اعتقالك لي، جعلتني أشعر انني احدى بنات تلك العائلة بالتأكيد".

ورغم انها كانت في الثالثة والعشرين من عمرها فقط عند فقدان زوجها، الا انها لم توافق على زواج جديد، وأفنت شبابها وكل ما لديها في الهجرة وتبليغ أمر الله. وفي النهاية كان لها شرف المثول بين يدي حضرة المولى.

* * *

ان تجربة حصول التغيير والانقلاب الروحاني للذين تشرفوا بمحضر حضرة بهاءالله هي فوق تجارب الحدود الانسانية المحدودة، انها تجربة عجز عن وصفها كل من خاضها. انها الجنة التي لم تشهدها عين ولم تخطر على قلب بشر. هذه التجربة هي مثل محيط عاصف قذفت كل موجة من أمواجه لئاليء المحبة والجمال. ومع شدة عذوبة مياه هذا البحر، الا ان المرء لا يود السباحة في مياهه فقط، بل الغوص في أعماق نشوته. انها سعادة خيالية غالبا ما تأتي وتختفي بسرعة الضوء. انها نعمة الهية خاصة جدا، نالها القليلون فقط، فبدت فيما بعد آثارها عليهم كل حسب مقدرته الروحانية.

استأذنت ذات مرة في الدخول الى غرفة حضرة بهاءالله ساعة تنزيل الألواح. فقوبل طلبي بالموافقة. وعند دخولي وتشرفي في غرفته، سمعت فيضا من أنهار الكلمات تنهال من شفتيه الكريمتين كالسيل الجارف. وبدا كما لو ان جوّ المكان وأرضيته وجدرانه وكل ذرة في غرفته امتلأت بالعبير والروائح الزكية. لايمكن لأحد تصور ما أعنيه سوى أولئك الذين خاضوا مثل تلك التجربة التي لا توصف. لقد استمر التنزيل حوالي الخمس دقائق. بعدها خاطبني بقوله: "كنت هنا في مناسبات كثيرة ساعة نزول الآيات. ولو طلب كل البشر الحضور للاستماع الى نزول الآيات، لسمحنا لهم بذلك. لكنه، طالما اننا تركنا هذه النعمة لتقدير البشر، لذا حجبنا اظهارها عن العامة".

وحصل ان وردت قصة الشيخ الدموي محمد باقر المسؤول عن استشهاد العديد من البهائيين، والذي لقّبه حضرة بهاءالله "بالذئب" بسبب مكائده الشيطانية، وكيف صرخ ذات مرة من فوق منبره مطالباً بترجمة احدى سور القرآن الكريم التي تقول:

"الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد..." وتقديمها للبهائيين الذين يعتبرون حضرة بهاءالله رباً لهم.

فتفضل حضرة بهاءالله لدى سماعه ذلك: "سمع موسى نداء إني أنا الله من شجرة متّقدة. فلم لا يمكن ذلك من انسان؟".

* * *

ظلّت فكرة الركوع والسجود على أقدام حضرة بهاءالله تراودني لفترة طويلة. وذات يوم تشرفت بمحضره المبارك وكان ساعتها يخطو في حجرته ذهاباً وأياباً. فألصقت جسدي بالجدار لحظة توجهه نحوي، وعند استدارته الى الخلف لحقت به خطوة او خطوتين على أمل تحقيق حلمي ورغبة فؤادي. لكنه عاد والتفت في تلك اللحظة ليعود من جديد. فرجعت بسرعة وخفّة الى مكاني عند الجدار. فخاطبني بابتسامته السماوية وهو يشير بيده نحوى آمراً: "ما الأمر؟ أراك تتقدم وتتراجع. قف مكانك". ومع انني لم أحقق رغبتي، الا ان حركة يده وروعة ابتسامته غمرت قلبي بفرحة لا حدود لها.

* * *

عندما وصلني الأمر بترك أرض الأقدس، طلبت في هذه الزيارة أيضا السماح لي في البقاء اسبوعين آخرين. وللمرة الثانية طلب حضرة بهاءالله ضامناً لي. وبما اننا جميعا نعلم ان كل رغبات حضرة المولى مستجابة لدى حضرة بهاءالله. لذلك أجبت: "حضرة المولى!"

وعندما سمح لي بالتشرف في مساء ذلك اليوم ودخلت غرفة الجمال المبارك، خاطبني بقوله: "يمكنك البقاء شهرا كاملا. ان ضامنك عزيز ومحبوب وعظيم". وتفضل ايضا: "لقد اعتدت في أيام اقامتي في بغداد الذهاب الى المقهى ومقابلة الاحباء والأغيار ومختلف اشكال الناس. وكانت تلك هي طريقة ايصال كلمة الله للبشر، وبها آمنت بالأمر نفوس عديدة. أما في أدرنة وهنا في عكاء، فلقد أخذ المولى هذه المهمة على عاتقه، وعليه مواجهة نفس ما لاقيناه سابقاً من مصاعب. لاننا في بغداد لم نكن سجناء وكانت سمعة الأمر واحدا في المائة مما هي عليه اليوم، وأعداء الأمر لم يكونوا أقوياء مثل الآن. لقد قابلنا العديد من الناس في ادرنة، لكننا نادرا ما كنّا نقابل غير الأحباء في السجن الأعظم. ان أعباء هذه الأمور قد استقرت الآن على أكتاف المولى. لقد عمل من نفسه درعاً يقينا أعباء شؤون مشاغل الحكومة والناس ليوفر لنا قليلا من الراحة والهناء. في أول الأمر، هيأ بيت المزرعة لنا، ثم حصل على هذا القصر في البهجة، انه منهمك ومشغول في خدماته وغارق في مشاكل ومصاعب هذا العالم لدرجة تمضي عليه في بعض الأوقات عدة اسابيع لا يجد فيها الفرصة لزيارتنا، بينما نحن مشغولون بتنزيل الألواح والاجتماع مع الأحباء".

كما تفضل في مناسبة اخرى كنت موجودا في محضره المبارك أيضاً: "ان قدرة وقوة الغصن الأعظم (عبدالبهاء) مخفيّة الآن. وفي المستقبل سيتضح كيف سيتمكن من رفع لواء الأمر في العالم وحيدا فريداً، وجمع البشرية تحت سرادق الطاعة والسلام". ان هذه الكلمات هي زبدة ما تفضل به وما يمكنني تذكره الآن.

كان حضرة بهاءالله دائم المكوث في غرفته داخل قصر البهجة. وكان باستطاعته من هناك رؤية حضرة عبدالبهاء وهو قادم من ناحية عكاء في طريقه الى القصر. وفي الحال كان يطلب بحزم من جميع الموجودين في محضره الخروج لاستقباله ولقائه.

ذات يوم كان حضرة بهاءالله حزينا جدا بسبب تصرف بعض الاحباء الساكنين في بيته. فتفضل معلقاً على الموضوع بألم شديد: "نحن ننصح الحجاج القادمين الى عكاء - قدر المستطاع - بالتوجه مباشرة الى محضر الغصن الأعظم للاستماع اليه ولملاقاة بعض المؤمنين الثابتين. ثم العودة الى ديارهم من هناك مباشرة. فذلك يساعد على رقيّهم الروحاني. والسبب هو ان الأحباء لايخضعون في محضر المولى للأفكار

والاعمال البشرية الركيكة، وكل ما يشاهدونه منه هي النزاهة السماوية. ولو فتح الناس عيونهم، فسيرون بجلاء مقدار البون الشاسع بين كمالات المولى السماوية وضعف وأخطاء الآخرين. فان حدث بعد ذلك وشاهدوا أعمال بعض آل بيتي غير المقبولة، فسوف لن يتفوهوا بغير كلمات الشكر والمديح لعظمة وصبر الفرد الواحد الرحمن الرحيم. نحن مطّلعون وناظرون لكذبهم ونفاقهم. لكن، علينا اللوذ بالصمت ومداراة ذنوبهم. ولكن مع الأسف الشديد يعتقد المنافقون اننا لا نعلم الحقيقة".

* * *

جاء ذات يوم لزيارة الأرض الأقدس خياط يدعى محمد علي، وهو من ذوي الأخلاق الحميدة والروح المرحة وسرعة البديهة، وأمضى غالبية أوقات الزيارة طائفاً حول قصر البهجة. وبقي عند لقاء الأحباء يمتّعهم ويضحكهم بقصصه اللطيفة الظريفة دائماً. أرسل لي ذات مرة رسالة قال فيها انه سمع أحد مشاهير الصوفية يقول: "يا الهي! سأرتقي الى الفردوس الأعلى ان سمعتك تناديني يوما ما بكلمة (يا عبدي)". كما ذكر لي عن احساسه وشعوره بالسعادة والارتياح دائما عند تجواله في حدائق قصر البهجة. لكنه لم يسمع تلك الكلمة العذبة قط.

فكتبت رسالة لحضرة بهاءالله بخصوص هذا الحاج. ورداً عليها، استلمنا من حضرته لوحاً رائعاً يخاطب فيه كل واحد منّا بكلمة (يا عبدي) تسع مرات وليس مرة واحدة فقط. وبهذا شاهدنا بعيوننا تحقق الحديث المشهور: "من تقدم لي شبراً، تقدمت اليه باعا".

* * *

استدعيت لمحضر جمال القدم قبل انتهاء مدة زيارتي بثلاث ليال. وخلال الزيارة أكد حضرته على أهمية تفكّر الناس بموضوع مراحل نفيه وضرورة ادراكهم لخضوع كل مرحلة منها لمشيئة الله وتدبيره، وتفضل: "ان يّد الله فوق يّد الجميع وقدرته وقوته مسيطرة على الخلق كافة. تفكروا بأمر الذين خافوا من فقدان سطانهم الدنيوي وارسلونا الى السجن الأعظم. أين هم الآن؟ لقد أنزلهم الله من القصور وأودعهم القبور. ولن تذكر اسماءهم قط. لكن مولاك، استقر في هذا القصر بقوة الله وقدرته وسلطانه". بعدها أمر بترتيل أجزاء من اللوحين المرسلين الى سلطان الامبراطورية العثمانية وشاه ايران. ثم أمر بعد ذلك بانصراف الحجاج من محضره.

جاء أثناء تناول العشاء من يحمل كمية من الحلوى مرسلة من قبل حضرة بهاءالله ومعه رسالة خاصة لي، تقول: "أخبره ان يأكل الحلوى ويقول لنفسه عليّ بالتوجه الى الوطن".

في هذه المرة، تهيأت للسفر ولم أحاول طلب ضمانة حضرة المولى ولا توسطه. وبقيت ذكرى حلاوة كلمات محبته اللطيفة (عليه بالتوجه الى الوطن) طريّة في قلبي وسلمت أمري لله.

الا ان مطراً غزيراً هطل في اليوم التالي . ولدى تشرّفي بمحضره المبارك مساء اليوم ذاته، تفضل ممازحاً لحظة دخولي غرفته: "تبدو كمن يتوقع شفاعة المطر له". فبدّدت هذه المزحة اللطيفة كل أحزاني وبدّلتها الى فرح تام. وعندما عدت الى "بيت الحجاج" ونقلت لهم ما حدث اثناء اللقاء. اتفق الجميع على ان اليوم التالي سيكون ممطراً ايضا، وسوف لن يسمح لي حضرته بالرحيل.

لكن يوم الغد جاء بشمس مشرقة. وعند تشرفي بمحضره المبارك في غرفته بقصر البهجة، تفضل بخصوص موضوع التبليغ: "ان التقرب اللطيف من الناس واظهار المحبة لهم، هي من أولى متطلبات تبليغ الأمر. على المبلّغ الاستماع باهتمام لكل ما يقوله الشخص المقابل حتى ولو تضمن كلامه التخيّلات التافهة والتكرار الأعمى لآراء الآخرين. عليه بعدم الاصرار في الرأي وتجنب الدخول في جدال ينتهي بالرفض والعناد او العداوة، لان الشخص المقابل سيرفض الأمر عند شعوره بالهزيمة والخسارة. عليه

القول الى حد ما: "من المحتمل ان تكون على صواب. لكن، أرجو ان تتأمل الموضوع من هذه الزاوية الأخرى أيضا". ان المحبة والاحترام والتقدير تشجع الناس على الاصغاء وتبعدهم عن اظهار العداء. وسيقتنعون لانهم سيشاهدون ان هدفك هو اظهار الحقيقة والاحترام وتوضيح الحقائق الالهية وليس هزيمتهم. وهذا ما سيشجعهم على الانصاف، فتستجيب طباعهم الروحانية. وبفضل الله يجدون انفسهم وقد خلقوا من جديد.

خذ بنظر الاعتبار طريقة تبليغ المولى للناس، انه يستمع باهتمام وتركيز كبيرين لأكثر الكلام تفاهةً وحمقاً الى درجة ان المتكلم يقول في نفسه: "انه يحاول التعلّم مني". بعدها يبدأ المولى في وضعه بالتدريج على الطريق الصحيح وبعناية فائقة وبطريقة لاينتبه اليها. ويمنحه قوة جديدة من الادراك".

أخيرا.. جاءت لحظة الوداع الأخيرة.. وودعت محبوب روحي وفؤادي. فتقدم نحو الباب وهمس في أذني: "لقد عهدت بك الى يد المولى". ورغم انه نطق هذه الكلمات بغاية العذوبة - وهي علامة واضحة على محبته وتقديره لي - الا انها ملأت قلبي بغيوم الحزن السوداء، وأوضحت لي قرب موعد مغادرته هذا العالم.

بعدها.. ذهبت الى محضر المولى المبارك في عكاء، فغمرني بمحبته الواسعة، وكتب التماساً لحضرة بهاءالله يسأله فيها السماح لي في البقاء حتى ولو خارج مدينة عكاء، وذلك بسبب ثورة البحر وهياجه. فعادت رسالته متوّجة في أعلاها بجملة واحدة: "ليكن على ثقة. ان المغادرة أفضل له. الله الحافظ".

* * *

تركت عكاء متوجهاً الى مدينة حيفا ومنها أخذت سفينة الى استنبول، حيث أمضيت فترة وجيزة فيها، ثم توجهت الى باكو في روسيا القوقازية، ومن هناك ذهبت الى طهران. فعلمت ان الأهالي هاجموا الاحباء في اشتهارد وصادروا ممتلكاتهم واعتدوا على رجالهم ونسائهم وسجنوهم وهدموا بيوتهم. ونتيجة لذلك التجأ أكثر من خمسين بهائياً الى طهران وتناقشوا في الأمر وقرروا تقديم التماس لحكومة الشاه يطالبونه فيها بالعدل. وحال معرفتهم بوصولي من أرض الأقدس، طلبوا مقابلتي لسماع أخبار من في سبيله يفدون منازلهم وممتلكاتهم وأحبتهم ويرغبون حتى في تقديم أرواحهم فداء له.

لكن الحكمة كانت تقضي بعدم اجتماع الاحباء في طهران بأعداد كبيرة في تلك الأيام. لذلك اتفقنا بعد المشاورة على استقبال خمسة أفراد منهم فقط كل ليلة بمرافقة جناب أيادي أمر الله ملاّ علي أكبر. وبذلك أعددنا كل شيء على هذا الاساس. وفي ساعة اللقاء دخل غرفتي أكثر من خمسين فرداً! ومع ذلك، فقد غمرتنا فرحة لا حدود لها. فرتّلنا الألواح والمناجاة وتكلمنا عن حضرة بهاءالله وناقشنا موضوع اضطهادهم . لكني، ورغم مرور أربع ساعات على الغروب، لم أقدم العشاء لهم معتقداً بعدم كفاية طعام البيت لجميع الحاضرين. لذلك انصرفوا جميعا في نهاية اللقاء، دون تناول شيء من الطعام.

حزنت زوجتي كثيرا لفعلتي هذه، وعاتبتني وعيونها مغرورقة بالدموع، وقالت: "لقد جهزت خبزاً وجبناً ولحماً لأكثر من خمسين فرداً. ان هؤلاء هم من نهبت بيوتهم في سبيل الله وتشتتت عوائلهم لمحبة حضرة بهاءالله، وهم الآن لايملكون ملجأ او مأوى. وجاءوا لزيارة بيتنا المتواضع. فبماذا سنجيب الله اذا سألنا: لماذا صرفتموهم دون طعام؟"

أدركت في تلك الساعة فقط حجم خطأي. نعم.. علينا بتعقل الأمور دائما، لكني كنت في هذا الموقف بخيلاً جداً. ولأرضاء زوجتي ولأسعاد قلبها العزيز، اتفقنا على دعوتهم جميعاً للعشاء ثانية كل ستة أفراد على حدة.

* * *

لم يمض وقت طويل حتى جاءني الأمر بالتوجه الى اصفهان. فوصلتها بينما كانت عائلتا المؤمنان الشهيران سلطان الشهداء ومحبوب الشهداء(37) تستعدان للسفر الى ارض الأقدس. بقيت هذه العائلة الكريمة العزيزة هدفاً دائماً لأنواع البلايا، وكان حاكم المدينة وعلمائها مستعدين على الدوام لانزال جديد البلايا والمصاعب عليهم من خلال أعوانهم الاشرار. وبدت عملية مغادرتهم مدينة اصفهان المضطربة ضرباً من المستحيل. اذ لم تزل عالقة في الأذهان ذكرى انتشار قوى الكراهية والحقد في المدينة، وكيف ابتلع لهيبها هذين الأخوين. لذلك خشي بقية افراد العائلة من مواجهة نفس المصير. لكن رغبتهم في زيارة محضر جمال القدم كانت أقوى من حذرهم. وتغلبت في النهاية محبتهم على خوفهم وسلكوا بشجاعة طريقهم الى موطن محبوب قلوبهم وأرواحهم. وبوصولهم أرض الأقدس، لم تكن هناك حدوداً للنعم الألهية التي غمروا بها، وطلب منهم المكوث لمدة سنة كاملة هناك.

بعد مغادرة تلك العائلة مدينة اصفهان الى أرض الأقدس، استيقظ مارد الحقد الجبار في نفوس أهل المدينة، فهددوا بهدم بيوت تلك العائلة ونهب ممتلكاتهم وتقطيعهم ارباً ارباً حال عودتهم. فطغى شعور من الحزن والرعب على الجميع وعاش بقية الأحباء داخل المدينة في قلق عظيم.

كتبت رسالة الى الأرض الأقدس أوضح فيها الأمور وأقترح بقاء الزوار في طهران لبضعة شهور حتى تنطفيء هذه النار المحرقة بفضل الله. فجاء جواب حضرة بهاءالله حازماً حاسماً في لوح أكد فيه للأحباء سلامة عودة الزائرين الى منازلهم، وأنزل لهم دعاء لترتيله ساعة وصولهم بلدهم.

وحدث عند عودتهم الى مدينة اصفهان أن استقبلهم الناس باحترام كبير وجاء الى بيتهم العديد من العلماء والشخصيات للترحيب بهم.

في خلال تلك الفترة شّرف جناب ميرزا أبو الفضل(38) بمقدمه تراب مدينة اصفهان. ولأنه كان من طلاب العلم فيها قبل عدة سنوات، فإن العديد من رجال الدين وطلاب الفقه يعرفونه جيداً. لكنهم اكتشفوا بعد مقابلته انه ليس نفس الرجل الذي عرفوه سابقاً وقت دراسته في مدارسهم الدينية. فلم يكن آنذاك الا كقطرة ماء، واليوم اكتشفوا انه أصبح بحراً. وعلى ذلك علّق أحد مشاهير علماء المدينة بعد زيارته له قائلا: "لو أحاط بميرزا أبو الفضل جميع علماء هذا الزمان، فسيكون بينهم كالمارد وسط الأقزام، وسيبز الجميع ويفوقهم في المنطق والبرهان وفي قدرته على شرح المسائل الفقهية. انه فريد زمانه حقا."

* * *

وصلت اصفهان خلال احدى سفراتي لها عند منتصف الليل تقريبا، فتوجهت مباشرة الى منزل أحد الأحباء. ورغم قيام مضيفي باعداد الشاي لي، الا انني شاهدت علامات الحزن والقلق بادية عليه، وعندما استفسرت منه عن السبب، قال: "لقد قتلوا ملاّ أشرف يوم أمس، وهم يبحثون عني الآن". وبعد أن سألته المزيد من التفاصيل، أكمل قائلا: "حدّثنا ملاّ أشرف قبل عدة أيام عن رؤيا شاهدها في منامه، قال: "انه رأى حضرة الباب يدعوه الى محضره المبارك. فأنتبه في الحال انه يستطيع الطيران، وراح يحلق عاليا ليصل اليه. وخلال طيرانه، سقطت منه عباءته. وبعد وصوله، تفضل حضرة الباب: "أنظر!". فألتفت ملاّ أشرف، واذا به يرى جميع الناس متحدين ومنورين بنور المحبة المنبعثة من كل فرد منهم وكانوا يرددون أغنية تمجد اسم الله".

بعد أن قصّ أشرف علينا رؤياه، قال: انه يعتبر ذلك اشارة واضحة لرجوعه الى مولاه، وتوقع أن يحدث ذلك قريباً جداً. ولم يمض يومان أو ثلاثة أيام حتى التقى أشرف برجل تظاهر أنه باحث صادق عن الحقيقة. فحدّثه أشرف عن الأمر المبارك لمدة أربع ليال متتالية. لكن هذا "الباحث" كان ذئباً في رداء حمل، اذ دعا أشرف لتناول الشاي معه في احدى المدارس الدينية. لكن بعضاً من أصدقاء أشرف ممن

يعرفون هذا "الباحث" على حقيقته جيداً، طلبوا منه عدم قبول الدعوة وحذروه من ان الرجل ليس الا يهوذا الاسخريوطي. فقال أشرف رداً على تحذيرهم: "سلمت أمري بيد الله". ثم ذهب للقائه. وحال ان وضع أقدامه داخل المدرسة، أنقض عليه ثلاثة أو أربعة جنود واعتقلوه واقتادوه الى مجلس الحاكم حيث أودع السجن لعدم توفر الوقت وحلول الظلام لتنفيذ فعلتهم الشنعاء.

في صباح اليوم التالي، شاهد سكان مدينة اصفهان أعواد المشانق وهي منتصبة في ساحة مدينتهم العامة، لكنهم لم يعرفوا سبب ذلك. وعندما جيء بأشرف مصفداً بالاغلال الى بيت الحاكم، تأثر موظفو الحكومة بمظهره اللطيف وسلوكه المحترم لحظة دخوله عليهم - رغم ضئآلة حجمه - لدرجة أن نهض بعض الأمراء الموجودين للدفاع عنه وحذروا الآخرين من تلطيخ أيديهم بدماء هذا الشيخ العجوز. لكن دفاعهم وتحذيرهم لم يقع على آذان صاغية، وأقتيد هذا الروح الطاهر الى المشنقة وعلّق عليها. لكنها انكسرت، فأعيد الى السجن مرة ثانية بسبب حلول الليل.

في صباح اليوم التالي، اجتمع في ذات الساحة نفس جمع البارحة. وعاد كبار الأعيان ليدافعوا عن سلوك أشرف بقوة وحماس أكثر من السابق، وليؤكدوا ان قتل هذا العجوز سيكون نذير شؤم على الحاكم. لكن قلب الحاكم ظل قاسياً لا يلين كالصخر، وفي النهاية صاح الحاكم: "ليجتمع العلماء ويناقشوه ويحاججوه، فان اتضح ان قتله ظلم وخطأ، فلينقذه الله من حقد آقا نجفي".

اجتمع العلماء في اليوم الثالث بحضور الحاكم، ووقف ألفا شخص في انتظار حضور السجين الذي وصل مع سلاسله الثقيلة ليقف أمام العلماء ويجيب على اسئلتهم العديدة بشجاعة وفصاحة نادرة. وعندما أمروه بنكران دينه، أجابهم: "أنا أمقت كل أنواع الكذب والالتواء والادعاءات الكاذبة". فلم يقنعهم هذا الجواب، وقام آقا نجفي ليأمره بلعن اسم مؤسس الديانة البهائية كي يحرر نفسه. فأجاب أشرف بثبات: "ان القرآن الكريم يحرّم لعن الأسماء وحتى شجب آلهة المشركين. أنا أؤمن بالاسلام وألقيت عليكم تحية "السلام عليكم"، كما انني مجتهد مثلكم وأعلم ان من واجب كل مسلم حقيقي البحث عن المباديء الأساسية لدينه الحنيف".

هنا، استبد الغضب في العديد من الشخصيات الحاضرة لعدم تحملهم تلك الاتهامات الظالمة وقاموا ليتركوا المكان. فأشتد حنق آقا نجفي أكثر من السابق وصرخ بصوت عال: "ليدخل كل من يقف في الخارج، ويشهد على تبليغ هذا الرجل للديانة البابية ". فأجابه أشرف على الفور: "من الطبيعي جدا أن يتهمني القادمون من الأسواق أو من الشوارع بما تشاء وأنا على هذه الحالة مكبلاً بالاغلال أمامهم. حلّ قيودي وفك وثاقي ثم ادخلهم علينا وإسألهم أن يشيروا الى المذنب بيننا". وللمرة الثانية قام بعض موظفي الحكومة بل وحتى بعض علماء الدين وغادروا مكان الاجتماع. ونهض الأمير عباس قلي ميرزا وهو يقول بحنق وغضب واضحين قبل أن يترك القاعة: "انهم يقتلون هذا الشيخ ظلماً، ويدعون انهم قادة المدينة الدينيين".

لكن هذه الاعتراضات لم تستطع اطفاء ظمأ آقا نجفي لدم ملاّ أشرف. وفي النهاية أصدر أمره بقتله. ورغم كبر سن الملا أشرف، الا انه ذهب الى مكان شهادته بسرعة كبيرة لم يستطع معها حرّاسه اللحاق به. ولحظة وصوله الى المشنقة قبّلها وقال: "إنا لله وإنا اليه راجعون". فأسرع هذا العاشق بهذه الطريقة الرائعة لدخول محضر معشوقه وحقق أمنيته العظيمة.

وفي أحد ألواحه، خلّد حضرة بهاءالله ذكرى هذا الشهيد المجيد، متفضلا، ان مدينة العاشقين طفحت بالمحبة والسرور لقرار عودة جوهرة ثمينة الى خزانة كنز الله الأبدي. وأوضح القلم الأعلى مقدار ألمه من جهل العلماء وغرورهم وقسوة مشاعرهم وأحاسيسهم لمنظر هذا الفداء الرائع.

* * *

لم يجد الأحباء حكمة بعد تلك الأيام المفزعة من بقائي في مدينة اصفهان. فغادرتها الى مناطق ثانية وتنقلت في مختلف مقاطعات ايران لعدة شهور. كانت مدينة كرمان محل أطول فترات بقائي حيث يسكن العديد من أعداء الأمر المبارك الذين لم يكن لهم سوى هدف واحد يتبعونه ألا وهو تفنيد ودحض تعاليم الأمر. وفعلوا ذلك دائما بكل وسيلة استنبطتها عقولهم الشريرة الى درجة انهم في بعض الأحيان زيفوا الألواح وحرّفوها وقدموها للناس لتثبيط عزائمهم في التحري عن الأمر المبارك. لقد كان التعايش مع هؤلاء أشد قسوة من التعذيب أو السجن.

وفي خراسان كان لي شرف لقاء جناب فاضل فروغي كنز المعرفة والحماس وصاحب القلب الشجاع. ولشدة ثباته وتأييده للأمر، غالبا ما أشرت عليه بترك مدينته الصغيرة والطواف في أنحاء ايران ومشاركة الأحباء محبته ومعرفته. فجاء اليوم الذي نهض فيه للقيام بالأسفار والخدمة والفداء، ولم يمض عليه وقت طويل خارج قريته حتى شاعت وطرقت شهرته الآفاق. وبسبب ذلك أصبح هدفاً لحسد العلماء الذين ابتكروا أشد المؤامرات خبثاً للنيل منه وأصدروا باستمرار فتاوي الحبس والنفي والموت ضده. فظل يطوف البلاد حتى ألقي القبض عليه وقيّد بالأغلال ورمي في السجن وباتت حياته في خطر عظيم ولم يكن للأحباء أدنى أمل في نجاته. لكنه، بعد أن تم اطلاق سراحه، بدى كما لو ان هناك قوة خفية تحميه وتسانده على تحقيق نجاحاته العظيمة في رحلاته التبليغية. وكان يشحن جو الجلسات التي تتم بحضوره بالحماسة الروحانية. ولقّبه حضرة عبدالبهاء في أحد ألواحه ب "قائد الجيش العظيم". كما ذهب ذات مرة لزيارة الأرض الأقدس حيث عاد منها بقوة وحماس شديدين.

كما كان لي شرف زيارة مدينة بشروئية في خراسان، موطن جناب ملا حسين. وفيها تشرفت بزيارة شقيقته وابن أخته، وشعرت عند وصولي بالانعكاسات الروحانية القوية كما لو أنها تنبعث من تراب الأرض والماء والهواء، وبدا لي كل الجو معطر بمحبة الله.

ومثلما كان عدد المؤمنين كبيرا، كان عدد الأعداء كبيرا أيضا. فكلما شاهدوا شخصاً غريباً جاء لزيارة جماعات الأحباء الصغيرة المتفرقة المنعزلة في الأماكن القصيّة ممن ليس لهم من هذه الحياة سوى قساوتها، أظهروا لهم تعصبهم الشديد وشحذوا أنيابهم ومخالبهم كحيوانات كاسرة تنتظر الانقضاض على هؤلاء المساكين العزل المنتشرين في مناطق البلاد المنعزلة.

مكثت في قرية بشروئية مدة شهر واحد، وجاء الناس بأعداد كبيرة للاستماع الى الآثار المباركة ولما أقوله عن الأمر المبارك. وبعد فترة علمنا ان الأهالي يجمعون قواهم لمهاجمة جماعات الأحباء المنعزلة المنفردة. وصرنا نسمع في كل صباح ومساء صوت امام المسجد من أعلى بناء المنارة وهو ينادي: "بدعة 00! بدعة 00! لقد مات الدين ومات ايمان الناس. أين ديننا؟ ماذا حل وجرى له؟".

عندها كتبت لكبير مجتهدي المدينة أدعوه لحضور بعض اجتماعاتنا حتى نتناقش علنا أمام الناس، وذكرت له انني في صدد دعوة بعض موظفي الدولة لحضور هذا النقاش. فأسكته هذا التحدي بقوة، وأطفأ نيران حقده تماماً.

ولحد اليوم لا تزال ذكرى احدى السيدات الموهوبات وتدعى "رهى" عالقة في ذهني. فلم تدخل هذه السيدة المدارس قط، لكنها كانت فخر بنات جنسها وذات روح باسلة وصلت أخبارها وسمعتها للشاه ووزرائه بسبب أفعالها الحماسية. كانت "طاهرة" زمانها. ومع قلة دخلها الا انها كانت تصرف ما تحصل عليه من عملها في مهنة الحياكة في الترحال والسفر لنشر اسم حضرة بهاءالله، وكان تجردها وصفاتها وروحها الخلاقة مثالا يحتذي به كل مبلغ طموح.

* * *

في طبس، قابلت عماد الدولة الحاكم المعروف بعدله وانصافه لرعاياه، والذي تمتع الأحباء في ظل حكمه بالحماية والأمان من شرور المعتدين. وغالبا ما كان يردد هذا الحاكم بافتخار كيفية حصوله في أيام شبابه على فرصة تشرفه بلقاء حضرة بهاءالله في العراق، وكيف أهداه حضرته مطواة صغيرة، ظل يحتفظ بها دائما في قطعة من القماش المخمل.

وبعد وفاته، احتل ولده مركزه وحمل لقبه وأصبح الحاكم بعده، فذهب في محبته للامر المبارك وعطفه على الأحباء مقداراً أبعد من والده، واختار بناءً جميلاً لعقد جلساتهم. وبسببه آمن العديد من الشخصيات المعروفة في المناطق المجاورة. ومن أهم أسباب تعلقه بالأمر وانجذابه اليه هي مباديء الأمر الأساسية وغياب نظام قيادة رجال الدين فيه، والتأكيد الشديد على احالة أي خلاف بين الأحباء الى المبيّن والمفسر الوحيد لكمات الله، حضرة عبدالبهاء.

* * *

لاحظت في يزد وفي بقية مناطق ايران ان تصرفات الأفنان الرائعة حازت على اعجاب وتقدير كل من تعرف اليهم. وتحت شعاع شمس محبتهم نمت تلك البذور التي زرعها وسقاها شهداء الأمر بدمائهم. "لقد كانوا كاملين في كل شيء"، واعتدنا سماع وصف الناس لهم: "مع الأسف انهم بهائيون".

سكنت في منزل جناب أفنان في مدينة يزد حيث اعتاد الناس النوم على أسطح منازلهم في ليالي الصيف الحارة. وذات صباح، وجدت عند نزولي من سطح الدار جناب أفنان وهو جالس ومستغرق في أفكاره العميقة. فأدركت من معالم وجهه ان خطباً جللاً قد وقع. ولكوني ما زلت في ملابس النوم، لم أتقرب منه لأستفسر عن السبب احتراماً لمقامه. وأرسل لي بعد أن انسحب من مجلسه رسالة مختومة، ففتحتها ووجدت فيها لوحاً من حضرة عبدالبهاء يعلن فيه للأحباء عن صعود حضرة بهاءالله. فنزل هذا الخبر على رأسي مثل وقع الصاعقة بدرجة ان الدموع لم تجد طريقاً لها للخروج من مقلتي.

بدأ الأحباء في التجمع تدريجياً في بيت جناب أفنان والدهشة تلفهم وتعقد لسانهم في جو من الأسى والحزن العميق. فبكى وناح هو وناح معه الجميع. بعد ذلك التفت الى الحاضرين يخاطبهم، قائلا: "كان من المؤكد انه سيغادرنا ذات يوم ليخلص نفسه من بلايا هذا العالم الدائمة وليعود الى علو بهائه. الحمد لله لقد ترك لقيادة أحبائه المحزونين "سر الله"(39). فعلينا الاسراع للتعلق بأهداب رحمته والنهوض لخدمة أمر الله ونكون خداماً حقيقيين ونضحي بكل ما نملك لرفعة شأن الأمر العزيز". بعد سماع كلمات التعزية هذه، قرأنا لوح حضرة عبدالبهاء مرة ثانية، وقررنا عقد جلسات تذّكر لمدة تسعة أيام بلياليها وبحضور جميع الأحباء.

وبسرعة انتشر نبأ الصعود المبارك في كل مكان داخل ايران. ورغم ان الناس كانوا يعانون من وطأة ثقل وباء الكوليرا الفتّاك، الا انهم أقاموا الأفراح وعمّهم السرور وسخروا واستهزءوا من البهائيين.

بعد اسبوع من وصول نبأ الصعود، استلم الأحباء كتاب عهدي، وفيه يعيّن حضرة بهاءالله بشكل واضح وصريح حضرة عبدالبهاء كمبيّن فريد لكلمات الله. وباستلام الأحباء لهذه الأنباء العظيمة انتابتهم السكينة والهدوء، ونهضوا بقلوب يملؤها الأمل لرفع راية الخدمة عالياً ولدعمها بكل قواهم.

* * *

ابتدأ عهد حضرة عبدالبهاء بقوة وزخم كبيرين أذهل جامعات الأحباء في كل مكان. فقد هطلت رسائل حضرة المولى على كل قرية ومدينة ومنطقة مثل قطرات مطر الربيع، وهلل الأحباء وابتهجوا لكلماته الخلاّقة واستنسخوا الواحه وتبادلوها كهدايا

ثمينة في طول الشرق وعرضه. وبذلك افتتح حقل جديد من النشاط الثقافي والمراسلات المنتظمة بين المؤمنين.

وأوضح حضرة عبدالبهاء للمؤمنين، ان الجسد المادي لرسل الله يشبه الغيوم الحاجبة لأشعة الشمس عن الأرض، وعليهم أن يعيشوا بسبب هذه الحدود المادية تحت قوانين الحدود البشرية، وبذلك يقع في الامتحانات كثير من الناس ويقولون: "أي نوع من الرسل هذا؟ انه ينام ويأكل ويمشي في الشوارع مثل الجميع". لكنه، وبانجلاء الغيوم ووصول شعاع الشمس الى الناس مباشرة تنتعش جميع المخلوقات بنورها المانح للحياة".

انتبه الأحباء للنعم والبركات الالهية الهاطلة عليهم، فهبوا لنشر الأمر وتبليغه بأعداد لم يسبق لها مثيل، ودب النشاط والحماس بدل الكسل والخمول في كل مستويات حياتهم خلال فترة قصيرة. فشجعني ذلك على العمل والحركة أيضا، وقمت برحلات تبليغية في عهد حضرة المولى. وكتبت - بطلب من الأفنان - رسالة مفتوحة الى العلماء، أعلن فيها حقيقة الأمر.

* * *

استلمت وأنا في مدينة آبادة طرداً من الأرض الأقدس يحتوي على واحد وثمانين لوحاً بخط يد حضرة عبدالبهاء، ومعها تعليمات غير عادية تقول: "لا تقرأ الألواح. أختر ثمانية عشر مؤمناً كيفما اتفق وأكتب أسمائهم على الألواح ثم سلّمها لهم. وافعل مثل ذلك في اصفهان وباوانات ويزد. أكتب اسم من تشاء. ويمكنك أيضا ارسال بقية الألواح لمن لم تستطع لقاءهم شخصياً.

علمت بعد انهاء هذه المهمة واتمامها حرفياً حسب تعليمات حضرته، ان كل من استلم لوحاً مني وجد فيه جواباً شافياً لرغباته وطلباته الخاصة جدا. وانتشر خبر هذه الحادثة في كل مكان. وعلّق رجل انكليزي كان يعمل مديراً لدائرة بريد آبادة بعد سماعه هذه الحادثة العجيبة بقوله: "أتعجب كل العجب لوجود انسان يمتلك مثل هذه القوى الروحانية، وأتساءل كيف استطاع أن يعرف خفايا نفوس كل هؤلاء الرجال. ان جميل صفاتهم ورقّة كمالاتهم هي خير دليل - ولا شك - على انه هو شخصيا مصدر ثقافتهم الروحانية". بعد تلك الحادثة، أعلن هذا الرجل الانكليزي بثبات عن ايمانه بالأمر المبارك(40).

* * *

ذهبت الى مدينة اصفهان، وقابلت جناب وزير أشهر شخصيات تلك المدينة. كان المسؤول عن شؤون المنطقة المالية رغم معرفة جميع سكانها انه وعائلته بهائيون. ورغم معرفة الحاكم بذلك أكثر من غيره الا ان ثقته فيه كانت عالية. أما كيف تغاضى الشيخ نجفي عن سفك دم وزير رغم تعطشه لدماء الأحباء الذي لا يرتوي، فذلك لان وزير يعرف نجفي، وبقي يعامله مثل ذئب جائع، فيرسل له بين الفيّنة والاخرى هدايا تشبعه وتهدئه باستمرار، وهذا ما حدا به الى مدح وزير واطراءه كلما تطرّق اليه الكلام.

كلما زرت جناب فتح أعظم في اردستان أشاهد فيه وفي ولده شهاب علامات الثبات والشجاعة العجيبة. كانت هذه العائلة وعائلة جناب رافعي، عماد الأمر المبارك في تلك المنطقة، وبسبب روحانيتهما ومثاليتهما ازداد الأحباء ثباتاً على العهد، خاصة وان غالبيتهم يعيشون بجوار بعضهم البعض هناك.

أثمرت جولاتي في اردستان وأصفهان والمناطق المحيطة بها كثيرا، مما أثار حنق وغضب الشيخ نجفي. فدعى الى اجتماع عام في مسجد الشاه، وقام ليرتقي المنبر بعد ان غصت القاعة بالحاضرين، وقال: "أيها المؤمنون المخلصون! ان حماية الدين هي واجب كل مؤمن. والحقيقة اننا لم نفعل ما فيه الكفاية سابقا لاجتثاث فئة البابيين الضالة، وكان عزاؤنا الوحيد هو الاعتقاد بأن من سمّى نفسه بهاءالله وقاد العديد من

الضالين، سيموت في يوم من الايام ويموت ويمحى معه أمره مثل جميع دعاة الضلالة السابقين. لكنه وصل الى علمنا الآن انه قد خلّف بعده ولداً فاق أباه علماً وجرأة في الاعلان عن دين والده، ونهض بقدرة ونشاط عجيبين، بحيث انه لو استمر على هذا النحو فسيستأصل الاسلام في فترة قليلة ويفرض على المسلمين عبئا ثقيلاً. ان الشاه وحكومته قد اعتقلوا وسجنوا وعذبوا وقتلوا قدر استطاعتهم العديد من اتباع هذا الدين الضال، ففرّ من البلاد الكثير منهم. ولكننا اليوم نلاحظ خمول الحكومة وسكوتها عنهم. لذلك فمن واجبكم النهوض لقتل كل البهائيين وبكل وسيلة ممكنة. عليكم بتنظيف البلاد من هذه الفئة الكريهة، وهذا ما سيعتبر بمثابة أعظم خدمة للاسلام. أما نحن، فمن جانبنا سنقوم بالدعاء الى الله لمساندتكم وشد أزركم وستكون الجنة هي جزاءكم حيث القصور الفسيحة والحور العين وكل ما ترغب به قلوبكم".

في كل مجتمع توجد فئة من الناس تبحث عن أعمال الشغب والتخريب، وتعتقد ان أبشع الجرائم هي من أعمال الصلاح والتقوى، وهذا ما حدث بالفعل في هذه القضية. فقد هب هؤلاء الغوغاء دفعة واحدة بقيادة رجال الدين لمهاجمة البهائيين وقتلهم ونهب وسلب ممتلكاتهم بحرية لم يعقها شيء. ولم يكن - في المقابل - رد فعل الاحباء الضعفاء لدى سماعهم بهجوم الشيخ نجفي وأتباعه عليهم سوى رفع أيديهم وعيونهم الى الله طالبين حمايته.

وعندما وصل علم مدير دائرة البريد الانكليزي أخبار أفعال الشيخ نجفي وتحريضه الناس على الأعمال التخريبية، أتصل بالحكومة المركزية في طهران - حسب ما يمليه عليه ضميره وواجبه الوظيفي - وأخبرهم بما يجري ويدور في المدينة. فوصلت الى اصفهان من حكومة الشاه برقية تأمر الجميع بوقف كل أشكال التحرشات. وبهذا امتثل كل المشاغبين لفحواها ونجى الأحباء من الاضطهادات بأعجوبة.

* * *

وصلنا عن طريق بعض السفارات الأجنبية وعن طريق صحيفة "أخطار" التي تطبع وتصدر في استنبول - والتي اشترك فيها عدد من الأحباء - خبراً عن اتحاد مجموعة من أفراد عائلة حضرة بهاءالله وقيامهم ضد حضرة المولى. فلم نصدق ذلك، واعتبرنا كل ما جاء في الخبر مجرد افتراءآت، ونفيناها جملة وتفصيلا، لعلمنا ان محرر الصحيفة هو من أعداء الأمر المبارك الألداء وتربطه بالأزليين علاقات قوية.

واظبت بعد ذلك على السفر والترحال من قرية الى أخرى ومن مدينة الى مدينة لمدة طويلة. وحيثما حللت وجدت الاحباء مخلصين للأمر المبارك مشغولين بالتبليغ. وبدخولي مدينة طهران استلمت لوحاً من حضرة المولى المحبوب يأمرني فيه بالاستمرار على السفر وبمطالبة الأحباء في الثبات على العهد والميثاق مخافة انزلاقهم - دون علمهم - في هاوية المخططات الخادعة لطموحات بعض النفوس. فكان هذا اللوح دليلا واضحاً على سعي بعض من حوله في سبيل رغباتهم النفسية وتفضيل ذلك على طاعة من عيّنه واصطفاه حضرة بهاءالله مركزاً لعهده وميثاقه.

لم تكن هناك حدود لأحزاني عندما علمت بتصرفات جمال في طهران. كنت أعرفه جيداً، فهو دائم الاعتقاد بأفضليته على بقية الأحباء، ولم يأل جهداً او يستثن سبيلا للحصول على قيادة المجتمع البهائي، وسافر الى الأرض الأقدس بعد صعود حضرة بهاءالله بدون أذن مسبق من حضرة المولى. ولم يستطع بعد عودته من كتمان رغباته أكثر من السابق، فشرع يناقش علناً مع الأحباء أفكاره وخططه الشيطانية التي أعتاد اخفاءها، ويضعها في اطار مزحرف من ثباته على العهد وعلى خدمة حضرة المولى.

كان جواد قزويني هو الواسطة لاستلام وتسليم مراسلاتي من والى البيت المبارك منذ أيام أقامة حضرة بهاءالله في أدرنة. استلمت منه في تلك الأيام - وهو في الأرض الأقدس - رسالة سرّية كتب فيها تعليمات ثلاث، تقول:

1 - لا تستعمل كلمات التبجيل والاحترام او صيغة (جعلت فداك)، في مخاطبة عبدالبهاء. ومن الأفضل ان يكون اسلوب رسائلك ورسائل من تكتب نيابة عنهم عادي وبسيط.

2 - لا تبدأ رسائلك بالمناجاة.

3 - لا تذكر كلمة "الغصن" واستبدلها بكلمة "الأغصان" دائما(41).

كانت هذه الرسالة دليلا آخرا على استمرار المؤامرات ضد حضرة عبدالبهاء في الأرض الأقدس. وبما انني شاهدت علامات الغرور والتكبر على جواد سابقا، فقد شككت بأصل الرسالة وافترضت معارضة جواد وجمال سراً لحضرة المولى. لذلك كتبت رداً واعتراضاً عليها وعلى تعليماتها الثلاث وأوضحت فيها الأسباب. وأضفت، ان كانت هذه هي أوامر حضرة عبدالبهاء، فأريد استلامها بخط يده. وان كانت لا. فلا اريد استلام أية رسالة اخرى من جواد. ولمّا لم استلم جواباً لرسالتي، فقد تأكدت من افتراضاتي في ابتداء تجمّع خفافيش الليل.

لم يخطر في ذهني قط، ان يكون المحرك الرئيسي لكل هذه المكائد هو الأخ غير الشقيق(42) لحضرة المولى. فأي تصورات عقيمة تستنبطها أفئدة البشر؟! من ذا الذي يمكنه الاشاحة بوجهه عن سرّ الله؟ لقد علّم حضرة بهاءالله الأحباء، كيفية الثبات على الأمر وعلى الميثاق لمدة ثلاثين عاماً. والآن، بعد رحيله الى عالمه العلوي، سلّمنا "كتاب عهدي" - وصيّته وميثاقه - الذي أجلس فيه حضرة عبدالبهاء على كرسي عهده بكل عظمة وإجلال.

وبقوة حضرة المولى، سافرت الى مختلف أنحاء عشق آباد وقوقازيا لرفع راية الميثاق، فوجدت الأحباء هناك مشتعلين بنار محبة الله، وحذّرتهم من ادعاء أي شخص مهما كانت منزلته عالية ومحترمة لمقام يوازي مقام حضرة عبدالبهاء. فوافقني الجميع ووقعوا وثيقة بذلك.

* * *

شددت الرحال من روسيا الى بيروت في طريقي الى الأرض الأقدس، فقابلت للمرة الثانية ذلك الرجل الجليل جناب محمد مصطفى بغدادي، جبل القوة والثبات. وخلال اقامتي معه، اطلعني على ما يدور ويحاك ضد حضرة المولى من مؤامرات في الخفاء، وأنعش روحي وهيأها لدخول محضر مركز العهد.

لم أحاول عند دخولي مدينة عكاء زيارة أي شخص، وأول ما فعلته هو كتابة رسالة الى حضرة عبدالبهاء قلت فيها: "اني لا أعرف أي شخص سوى حضرة المولى، وليس لي رغبة في لقاء أحد، الا اذا أذن هو بنفسه لذلك، وسوف لن أدخل المقامات المتبركة أو أطوف بها بدون اذن منه".

وبفضل الله ونعمته استطعت في نفس اليوم زيارة المقامات المتبركة والطواف حولها بصحبة حضرة عبدالبهاء والتمتع بسماع صوته الشجي وهو يرتل لوح الزيارة.

* * *

على القاريء الكريم أن يعلم ان محمد علي - أخ حضرة عبدالبهاء غير الشقيق - قد جاوز حدود مقام العبودية حتى خلال أيام والده، وحاول استغلال صلة القرابة للخروج من ظلام المغمورية بادعائه مقاما لنفسه، وبعث برسائلة الى الخارج سراً. فسبب بذلك حزناً لا حدود له لقلب والده حضرة بهاءالله الذي كان يصف محمد علي دائما مثل ورقة تتحرك على شجرة السدرة الالهية بحركة النسيم الالهي، فان ابتعدت عن هذا النسيم اللطيف ذبلت وماتت.

لم يأسف محمد علي من كل قلبه على كتابته تلك الرسائل، وبقيت جرثومة الشقاق تنمو في داخله وداخل بعض خواص رفاقه وصحبه، وظل هادئاً نسبياً يعيش في كنف رحمة حضرة بهاءالله الذي لم يكشف موضوعه ولم يفضح أمره وستر عليه.

وعندما جاء جمال الى الأرض الأقدس - بعد صعود حضرة بهاءالله - التقى بمحمد علي وجواد قزويني واتحدوا على العصيان، وأكد الاثنان لمحمد علي ان جميع الاحباء الايرانيين يدينون بالطاعة والولاء لشخص جمال وهم جاهزون للالتفاف حوله في أي لحظة يختارها. وبهذه الطريقة يمكن لمحمد علي ان يكون رئيسا للأمر. فغذى هذا التحريض والدعم رغبات محمد علي النفسيّة ونهض في وجه أخيه الشهير.

فغذى هذا التحريض والدعم رغبات محمد علي النفسيّة ونهض في وجه أخيه الشهير.

كان حضرة عبدالبهاء يعامل تلك النفوس المتذبذبة بمحبة فائقة، لكن محمد علي وجماعته لم يعيروا ذلك اهتماماً ولم يدخروا وسعاً في تحقير وتقليل شأن حضرته والعمل على اذكاء نار الشكوك في قلوب احباء أرض الأقدس. ولعدة مرات ذهب عدد من الأحباء الأوفياء أمثال محمد رضا ومحمود كاشي لمقابلتهم وتوضيح معاني كلمات "كتاب عهدي" بجلاء لهم، وتحذيرهم علنا وبشجاعة من عواقب أعمالهم الشائنة، وأوضحوا لهم في نفس الوقت ان لهيب هذا العصيان سيحرق نفوسهم وسيلهب دخانه عيونهم قبل غيرهم.

اما حضرة عبدالبهاء، فبقي يعاني من أعدائه بصمت. ولم يقطع عنهم محبته واحترامه. وكانوا خلال الاحتفالات والمناسبات يحتلون كراسي الشرف حول الموائد، بينما يقف حضرته ليخدم الجميع. وكنّا نسمع كلمات نصحه وتشجيعه للأحباء على خدمة الأمر المبارك، لكنها كانت لاتؤثر في آذان محمد علي الصمّاء وصحبه.

* * *

ازدادت حياة الأحباء الروحانية وادراكاتهم اعتمادا - في تلك الايام - على الألواح المستلمة من حضرة عبدالبهاء وعلى ما يجلبه زوار الأرض الأقدس من اخبار وعلى رسائل الاحباء المتمتعين بشرف السكنى والاقامة قرب المقامات المقدسة وشرف خدمة مركز العهد.

لكن العاصفة الرهيبة هاجمت أمر الله والأحباء بعد صعود حضرة بهاءالله في كل مكان وأشعلت نارا محرقة ودخانا خانقا أذبل وأحرق العديد من الأغصان والأفنان والأوراق ممن ترعرعوا تحت ظل شجرة سدرة الأمر المبارك(43). فلم تعد عيونهم مبصرة ولا آذانهم سامعة ولا أفئدتهم واعية. انه موقف يبعث على الرثاء أن يقع المرء تحت سيطرة نزواته الذاتية. ان حضرة بهاءالله علّم الأحباء في أيام حياته كيفية توجههم اليه فيما يستعصي عليهم فهمه من الآثار المباركة، وأوضح لهم في وصيته وكتاب عهده بجلاء بالتوجه بعد غروب شمس حقيقته الى غصن الله الأعظم(44). ومع ذلك، يصرّ البعض على اتباع رغباتهم النفسية والاشاحة بوجوههم عن حضرة عبدالبهاء مركز عهد حضرة بهاءالله.

وحال اشتعال هذه النار وامتداد ألسنة لهيبها، التهمت كل من تجرأ على التقرب منها والوقوف في طريقها، وسقط معهم أيضا كل من لم يتجنبهم. وفي النهاية، بقي حضرة المولى لوحده تقريبا. ورغم ذلك، مدّ يد المحبة لانقاذ كل من تعرض لخطر ذلك اللهيب، ولم ينقطع عن محضره سيل الرسائل والخطابات والموفدين.

ورغم انه زاد من محبته واحترامه لأعدائه، الا انه ظل يقظاً ومنتبهاً لأفعالهم كي لا تصل كلماتهم ورسائلهم للأحباء القاطنين بعيداً عن الأرض الأقدس ممن تتمركز آمالهم وطموحاتهم فيها ويتغذون برسائل الأحباء المخلصين الساكنين قرب المقامات المتبركة. ولم يود حضرته أن يصل الأحباء في جميع أنحاء العالم خبر التمرد القبيح ضد مركز العهد والذي لا يترأسه سوى أخيه غير الشقيق محمد علي. لذلك منع الأحباء من فض أي مظروف لا يحمل ختم حضرة المولى الشهير.

في مقابل ذلك، كان الأحباء منتبهين يقظين أيضا، فمثلا استلم طبيب لقّبه حضرة عبدالبهاء ب (حكيم الهي) يسكن في مدينة قزوين، رسالة تحمل ختم حضرة المولى،

وبعد قراءة محتوياتها، شك الطبيب في مصدرها، اذ أورد كاتبها تعليمات خاصة في كيفية عنونة المراسلات واقترح بعض الأفكار الشيطانية في محاولة قصد من ورائها تخريب سلطة حضرة المولى. فأعاد هذا الطبيب الرسالة الى الأرض الأقدس وهي متضمنة سؤالا لحضرة المولى يقول: "من يكون هذا الشخص حتى يصدر تعليماته للأحباء؟ نحن جميعاً متوجهون بقلوبنا وأرواحنا نحو نقطة واحدة هي حضرة المولى المحبوب ".

فكشفت رسالة حكيم الهي، ان جواد قزويني هو كاتب الرسالة. أما كيف فعل ذلك. فلقد كتب في أول الأمر رسالة مقبولة ووضعها في مظروف وعرضها على حضرة المولى. وبعد أن زين حضرته مغلفها بختمه وتوقيعه، فتح جواد المغلف مرة ثانية وبدّل الرسالة بأخرى تحتوي على اقتراحاته الشخصية وأفكاره الشيطانية.

أنقذ قلم حضرة عبدالبهاء الدائم الافاضة الوضع في كل مكان. واستلم الأحباء في أصغر القرى والمدن وفي أقصى أنحاء الأرياف رسائله البديعة بانتظام، فاستنسخوها وتبادلوها مع مختلف الاحباء بكل محبة وسرور. وبذلك ظهرت بين الأحباء حركة نشطة في تبادل الهدايا الالهية بين مختلف أنحاء الشرق وحذروا بعضهم بعضا من خطر هجوم الناقضين الغاشم. وهكذا تحصن أفراد الأحباء ضد تسلل ناقضي العهد ورغباتهم الخبيثة وتفسيراتهم الخاطئة للآثار المباركة.

ان أمر الله لا يمكن ان يعهد به الى أيدي الناس، والا فسنجد المفسرين في كل قرية ومدينة وسينطفيء نور الحقيقة الهادي، ويكون ذلك كما لو ان طبيباً حاذقاً ألّف كتاباً دوّن فيه أسماء العديد من العلل والأمراض وأسماء الأدوية والأعشاب المستعملة لمعالجتها. فهل يكفي تسليم الكتاب الى كل من يعرف القراءة لمعالجة مريض يعاني من داء خطير؟ أو هل من الحكمة اتباع نصح من يستطيع قراءة هذا الكتاب؟ بالتأكيد ان هذا ليس كافياً. نحن بحاجة الى خبير يعرف تشخيص وتحديد العلّة أو المرض بالضبط، وتحديد الدواء المناسب ومقداره ومواعيده لنا أيضا. لهذا السبب وقّر عهد حضرة بهاءالله وميثاقه القيادة المستمرة والضرورية لكل البشرية.

أما الناقضون، فقد تنقلوا في طول البلاد وعرضها ليهاجموا الميثاق بعنف. فأوجدت نقاشاتهم القبيحة ومحاولاتهم الشيطانية لاضعاف الأمر بعض الأمواج البسيطة هنا وهناك. لكنهم لم يجنوا غير ثمار الفشل في النهاية، وهدأت مياه البحر وصفى وجهه وعاد ليعكس أشعة الشمس الحقيقية من جديد.

* * *

قابلت في شيراز "رسول الرحمة" سلمان. وفي الحقيقة ان متعة لقاء هذا الروح العظيم عند الأحباء كانت فوق الوصف. ومع انه كان أميّاً لا يقرأ ولا يكتب وهيئته بسيطة جدا، الا انه كان جوهراً للعلم والمعرفة، وكان يجيب في بضع كلمات على المسائل التي يستعصي فهمها على الأحباء. لم نشاهد فيه لا حب النفس ولا أقل درجات الاعتداد بها. ولم يداهن أحداً أو يوافقه على الحلول الوسط في المواضيع المتعلقة بأمر الله أبداً. وكما كان يوده الأحباء المخلصين كثيراً ويبحثون عن لقاءه، كان هنالك أيضا من لا يود ذلك.

وخلال احدى زياراته لأرض الأقدس، خاطبه حضرة بهاءالله متفضلاً: "لا تقلل من شأن العظماء في الجلسات واحترمهم". فأجاب سلمان بأدب جم: "لا يوجد عندي عظيم سوى الجمال المبارك وحضرة المولى. من المحتمل أن يكون هنالك كباراً، ولكن ليسوا عظاماً". فكانت جائزة هذا الجواب الشجاع ابتسامة لطيفة من حضرة بهاءالله.

* * *

نهض الرجال والنساء في الشرق بكل همتهم ومحبتهم لحماية أحباء الله من التفرق والاختلاف. ففي يزد مثلا، وقف جناب أفنان كالجبل الشامخ ليمنع تسرب

سموم مياه نهر الريبة من الوصول الى الشجيرات الطرية التي تعهدها حضرة بهاءالله بعنايته. وفي أردستان والمناطق المحيطة بها، وقفت عوائل جناب رافعي وجناب فتح أعظم وجناب مجد في وجه الهجمات الشريرة. أما جناب وزير فكان بطل ميثاق الله في اصفهان خلال تلك المرحلة.

أخيرا، انجلت شهور الاضطراب وأشرقت شمس الميثاق على القلوب الهادئة الثابتة، وعاد الأحباء يتدرجون في نموهم تحت شعاعها مرة ثانية، وبدأت حياة جديدة من النشاط والحركة، وأظهر البهائيون بعد ذلك الهجوم الشرس علامات السرور والانتعاش في كل مكان، وسمعت أخبار خدمات جديدة وحركة تبليغ نشطة من كل الجهات.

لم يرتو ظمأ الشيخ نجفي من دماء البهائيين بعد في اصفهان. وأصدر فتوى باعدام جناب مجد أحد أحباء أردستان المعروفين. كان هذا المؤمن رجلا طويل القامة قويّ البنية ذا ايمان ثابت وروح جريئة تبعث الرعب في قلوب أعداء الأمر. وحال سماعه بصدور فتوى اعدامه وتوقيعها من الشيخ نجفي، ترك موطنه في أردستان وتوجه الى اصفهان وراح يتجول ذهاباً واياباً في أكثر شوارع المدينة وساحاتها ازدحاماً بالمارة. عندما سمع الشيخ نجفي بتصرفات هذا المؤمن الجريء، خاف وارتعب من جرأة وشجاعة خصمه، وكف عن الذهاب الى المدرسة الفقهية ورفض قبول الدعوات وتوقف عن اداء صلاة الجماعة في المسجد ولم يخرج من بيته أبداً.

مرت الأسابيع وما زال نجفي يسمع أخبار تجوال خصمه الجريء في شوارع اصفهان. فأرسل اليه رسالة تقول: "يمكنك العودة الى بيتك بشرط واحد، هو أن لا تتفوه بكلمة عن هذه الحادثة لأي شخص". بعدما تأكد نجفي من رجوع جناب مجد الى موطنه في أردستان، عاود الخروج والظهور بين الناس علناً مرة ثانية.

* * *

خلال تلك الأيام وأثناء احدى جولاتي التبليغية في كاشان، شاهدت لأول مرة تأثير قوة توحيد كلمة الله لنفوس البشر. فلقد كان الأحباء ينحدرون من أصول مختلفة، يهود ومسيحيون وزرادشتيون ومسلمون، اتحدوا وامتزجوا جميعاً مثل الماء وعطر الورد بدرجة لا يمكن التفريق بينهم أبدا.

في قم قابلت الأخوين نداف مرة ثانية وقابلت معهم عددا من المؤمنين الجدد من أصل اسلامي. ومن الغريب ان يتم ايمان هؤلاء المسلمين على يد بهائيين من أصل زرادشتي يعملون في قم. كما حظيت هناك بهبة رائعة وهي زيارة جناب أصدق العائد لتوه من الأرض الأقدس، والذي نهض كالمارد لتثبيت المؤمنين على الميثاق وترتيب جلسات تعمق لهم كل ليلة.

بقي "جمال" كالشوكة في جسد الأحباء، ولم يرغب في شيء سوى زعامتهم. اضافة الى انه فعل كلما في وسعه لانتزاع أموال الأحباء لدعم وتقوية ولده وأقربائه الذين كانوا كالطفيليات الملتصقة بجسد الأمر. وفي المقابل فعل حضرات الأيادي والمبلغين والأحباء كل ما استطاعوا عليه لارضائه. لكن ذلك لم يثمر معه شيئا، فكلما أعطوه ازداد في طلباته أكثر.

وحذّر الدكتور محمد خان منجّم الأحباء من خطر أفعال جمال بقوله: "أنا أعرف هذا الرجل منذ طفولتي. فعندما كان والدي معروفاً بايمانه بالأمر المبارك، كان جمال يخاف الظهور علناً الا فيما ندر. وكان والدي يرسلني باستمرار لزيارته والاستفسار عن احواله وتوصيل الهدايا اليه. كان والدي دائم القلق، وغالبا ما كرر قوله، ان جمال لا يؤمن بشيء وان مرغوب قلبه الشهرة والمال فقط، وكان من الافضل لو انه لم يسمع عن الأمر المبارك بتاتاً. على الأحباء ان يحاولوا المحافظة على سكونه وهدوئه. ففي حالة حدوث أصغر عمل يخالف رغباته، فسوف لن يتأخر في خلق أكبر قدر من

المتاعب لهم. واذا ما شعر بألم وخزة خفيفة، فسيذهب فورا الى رجال الدين في طهران وينكر ايمانه أمامهم ويساعدهم على اراقة دماء البهائيين الأبرياء".

ذات ليلة، دعى جناب أفنان العديد من الأحباء لحضور احدى الجلسات وطلب من جمال الحضور أيضا. وكان الغرض من ذلك هو ايجاد الوحدة بين الأحباء وتشجيعهم على النهوض لخدمة الأمر المبارك. فتظاهر جمال بالثبات على الميثاق وقال: (لنكتب جميعنا رسالة الى المولى، نسأله فيها عدم تسمية نفسه "عبدالبهاء" وليبقى على لقبه القديم "سر الله" كما كان في أيام حضرة بهاءالله).

انزعج الأحباء كثيرا من هذا الاقتراح الوقح، وقال أحدهم: "انه مركز العهد والميثاق ويعلم جيدا ماذا يفعل. فمن نكون نحن حتى نقترح عليه اسماً أو لقباً لنفسه؟ لقد وافقنا على ان حضرة بهاءالله مظهراً كلياً الهياً. وسنعرف مركز عهده وميثاقه تحت أي اسم يختاره".

* * *

وجدت في الأرض الأقدس مركز عهد حضرة بهاءالله محروما من صحبة الأحباء المخلصين، ومحاط بأولئك الذين لا يبحثون سوى عن مصالحهم الشخصية ورغباتهم العقيمة. وأذهلتني معاملة حضرة المولى لهم بكل تلك المحبة والصبر وامتثاله لتلبية كل ما يطلبونه. وجميعنا يعلم ان طلباتهم الباهظة ليست الا خطوة لدفع حضرة المولى نحو العوز والفاقة. ومع ذلك فقد قبل بكل طلباتهم الظالمة ووافق عليها، على أمل عدم وقوفهم ضد الأمر علنا. لأن ذلك سيحدث تعبا ومشقة لجامعة البهائيين الغضة في كل انحاء العالم، ومن المحتمل أن تجلب مثل هذه العاصفة القاسية الهلاك للبراعم الطريّة النامية في كرم الله. ان حضرة المولى يحترم كل أفراد عائلته ويحميهم وهو دائم المحاولة لايصالهم الى طريق الايمان الحق.

وعلى سبيل المثال، عندما قاربت فترة زيارتي لعكاء على الانتهاء نصحني حضرة عبدالبهاء بالسفر الى ايران عن طريق الهند. لكنه طلب مني قبل المغادرة الذهاب الى قصر البهجة حيث يقيم محمد علي لتوديعه وعائلته وتفضل: "ستكون ضيفهم لتلك الليلة، وعند منتصف الليل سيطلبك محمد علي للقائه، رغبة منه في التحدث اليك على انفراد. وعليك باستئذانه قبل الأجابة على اسئلته والتحدث اليه بمحبة وأدب واحترام، ولا تتفوه أبداً الا بما يوحيه اليك الله".

ذهبت الى قصر البهجة، وفي وقت متأخر من الليل استدعاني محمد علي الى غرفته. فجلسنا لوحدنا بعد أن طلب من ولده الانسحاب من الحجرة، وقال لي: "عندي سؤال خاص جداً أريد أن أطرحه عليك. ألا تعتقد ان كل ما ورثه أخي من حضرة بهاءالله ورثته أنا كذلك؟"

فقلت: هل تسمح لي بالجواب.

قال: نعم.

قلت: "لقد أمر حضرة بهاءالله بحزم في كتاب الأقدس وكتاب عهدي حضرات الأغصان والأفنان والجميع بدون استثناء أن يكونوا مطيعين وخاضعين للغصن الأعظم. فكلما ازدادت طاعتك له كلما علا مقامك وارتفعت منزلتك في قلوب الأحباء. ان منزلة الأغصان والأفنان متوقفة على درجة طاعتهم لمركز العهد، وطالما ان حضرة المولى حظي بصراحة على هذه الدرجة، فمن المؤكد انه يملك شيئاً لا تملكه أنت. وفوق كل ذلك، من يستطيع أن يدعي انه يضاهي حضرة المولى في أي شيء في هذا العالم؟"

هنا نهض محمد علي وقال: "لقد حان وقت النوم". ثم صرفني. فذهبت للنوم في احدى غرف قصر البهجة السفلى، وعدت في اليوم التالي الى عكاء. ثم غادرت حيفا الى بومبي. لكن تلك التجربة أوضحت لي طريقة الناقضين الماكرة في زراعة أول بذور الشكوك في قلوب المؤمنين.

* * *

كان جناب أديب ما يزال بهائياً جديداً في طهران، واعتنق الأمر المبارك في أواخر سنيّ حياته، لكنه كان ناضجاً ومتعلماً وجريئاً وراسخاً في ايمانه. وعيّنه حضرة بهاءالله كواحد من أيادي أمره. طرح جناب أديب بعد صعود حضرة بهاءالله وقبل وصول كتاب عهدي الى ايران، سؤالا على جمال حول مستقبل رئاسة الأمر. فأجابه جمال بعجرفته المعهودة، انه متأكد من اقتسام الاغصان لقيادة الأمر. فاعترض جناب أديب على ذلك وقال: ان حضرة بهاءالله ذكر بشكل دقيق في كتاب الأقدس وفي بعض الألواح الأخرى وجوب توجه الأحباء بعد صعوده الى شخص واحد كرئيس للأمر. الا ان جمال أصر على أن يكون هنالك غصنان لقيادة الأمر والأحباء. فأجابه جناب أديب، في هذه الحالة، على أحدهما الصمت والطاعة وعلى الآخر التكلم والقيادة. أجاب جمال: كلا. الاثنان يتكلمان. قال أديب: ان ذلك يخالف العقل والمنطق، فحتى في الامور الدنيوية لا يمكن ان يقتسم رئيسان قيادة حركة واحدة، فما بالك بأمر الله الذي يستند على نظم بديع.

عندما لاحظ جمال عدم اقتناع أديب بوجهة نظره، ابتدأ بالتراجع عن موقفه مدعياً ان ذلك هو ما سمعه من الآخرين فقط. وكلما رجحت كفة جناب أديب كلما أنكر جمال دعواه مدعياً نفس الادعاء!

كان جناب أديب جبلا من الثبات والتضحية. كتب ذات مرة رسالة الى رئيس وزراء ايران يوضح فيها الموقف البهائي ويقدم له الدلائل الواضحة والجلية على طاعة البهائيين لحكوماتهم وعلى تجنبهم كل أشكال النشاطات السياسية، ووقعها باسمه ولقبه، وأعلن صراحة أن توضيح مثل هذه الأمور للدولة هي من صميم واجبه الديني.

اقترحت - آخذاً بنظر الاعتبار تمتعي بنصف قرن من السعادة تحت ظل الأمر وحداثة ايمان جناب أديب رغم كثرة تضحياته، حيث ان الخطر كان واضحاً - اقترحت ان يستنسخ محمود زرقاني الرسالة ويبعثها باسمي، لأننا بحاجة الى أديب ولا نود المخاطرة بفقدانه أو تورطه في مشاكل قد تتسبب فيها هذه الرسالة. فقوبل اقتراحي بالموافقة وبعثت الرسالة بواسطة البريد. وبعد مضي عدة أيام، وصلنا من سكرتير رئيس الوزراء اشعاراً يعلمنا فيه باستلام الرسالة وبابراق مضمونها كاملا الى ولى العهد. فكانت تلك الرسالة من أكبر الخدمات التي قدمها جناب أديب للأمر المبارك. اذ حفظت وصانت الأحباء من الشكوك والريبة التي تعم البلاد خلال أوقات الاضطرابات والمذابح، ومن التقارير المشبوهة والملفقة ضدهم التي تنم عن الحقد الاعمى. وقد أطرى حضرة بهاءالله في وقت لاحق على عدالة رئيس الوزراء لاستلامه الرسالة وتصرفه المنصف.

* * *

كان أيادي أمر الله ملا علي أكبر معروفاً ومشهوراً بقوة ايمانه بين الناس. وبقي طوال سنين عديدة يستمع لكلمات والسب والشتم واللعن الجارحة كلما تجاوز شارعاً أو تخطى ساحة عامة. وذات يوم ابتدأ جار له يدعى ملا رضا حملة مضايقات له وللأحباء. فهاجم البهائيين بحقد شديد وشجع الناس على قتلهم ونهب ممتلكاتهم. فكان نصيب ملا علي أكبر من هجوم جاره حصة خاصة. وبسبب ذلك، اجتمع حضرات الأيادي في منزل جناب ابن أصدق للتشاور فيما عساهم أن يفعلوا لحماية هذا الحبيب. وتوصلوا في النهاية الى ضرورة تغيير مسكنه والتقليل من ظهوره علنا أمام الناس حتى تنتهي فترة الهياج والاضطراب التي تحدث عادة خلال أول شهر محرم من كل عام.

بعد ذلك، أرسلوا في طلب جناب ملا علي أكبر. وتبرع أحد الحضور بابلاغه قرار المجتمعين. فابتسم ملا علي وقال: "لقد نصحنا حضرة بهاءالله باتباع الحكمة في العديد من ألواحه. لكن ذلك لا يعني الخوف والاختباء، بل الطاعة والاتحاد في العمل والمصداقية والصبر وزراعة بذور الايمان في أراضي القلوب الخصبة. لقد اعتقلت أكثر من عشر مرات وقّيدت بالسلاسل ورميت في غياهب السجون، وامتدت فترة اعتقالي

ذات مرة أكثر من ثلاث سنوات، ولم يكن هنالك في أغلبها أمل للنجاة. لقد نال شرف تناول كأس الشهادة رجال اقل شهرة مني، بينما لم أزال أنا حياً على قيد الحياة. ان كانت الشهادة مكتوبة ومقدرة لي فيا لها من نهاية عظيمة! وان كانت مقاما وتقديراً الهياً، فلماذا الخوف والاختباء؟

بهذا البيان الرائع، برهن ملا علي أكبر انه مثال للايمان والاخلاص والثبات، وأثرت كلماته في نفوس السامعين ومنحتهم مزيدا من الادراك والعزيمة.

* * *

جاء موعد مغادرتي طهران الى المناطق الأخرى. فسافرت الى قزوين وتبريز وعشق آباد. ومع ان قزوين كانت مركزا لمؤامرات جمال الشيطانية، الا اني وجدت الأحباء فيها مخلصين وثابتين على العهد والميثاق. ووجدت نفس الحال مع أحباء تبريز ما عدا اثنان منهم. كانت جلسات الأحباء يومية، ووهبوا للأمر في بعض المناطق حدائقاً وبيوتاً وأراضي. وكانت الرسائل التي لا تحمل ختم أو توقيع حضرة المولى تعاد الى الأرض الأقدس على الفور. وجوبهت محاولات محمد علي المتكررة لاختراق حصن الميثاق بحواجز متينة رصينة لم يستطع النفوذ من خلالها واختراقها ولم يجد طريقة لازعاج الأحباء الذين ظلوا آمنين ومطمئنين تحت ظل شجرة حضرة الغصن الأعظم.

ووصل علمي وأنا في قوقازيا ان جمال كشف عن حقيقته علناً، وأدرك الأحباء أطماعه الخطرة وسمع الجميع فحوى رسالته لحضرة عبدالبهاء التي تضمنت مطالبه الثلاثة. الأول تعيينه رئيساً للبهائيين في ايران. والثاني تخصيص بيت له ولولده. والثالث شجب حضرة عبدالبهاء بقلمه المبارك أعمال حضرات الأيادي التي قاموا بها ضده. لكن هذه الرسالة بقيت دون جواب.

هاج وغضب جمال من ثبات احباء ايران على العهد والميثاق وعدم اهتمامهم وتقديرهم له. فكتب رسائلا لمشاهير الأحباء في كل البلاد، يشكو فيها بأسف تخليهم عن الوقوف الى جانبه. ومنذ تلك الساعة أدرك الأحباء من خلال تصرفاته المغرورة انه لا يملك من الأيمان شيئاً. فتجنبوه وأصبحوا لايطرقون بأقدامهم حتى الشارع الذي يقيم فيه.

نستخلص من قصة جمال درساً مهماً هو، ان الأحباء الذين كانوا يعتبرونه شخصاً مهماً وعظيماً ويقدرون ويبجلون حتى الكرسي الذي يجلس عليه عند زيارته لبيوتهم والذين اعتادوا سماعه ساعة تقبيلهم يديه: "لقد حُرّم تقبيل الأيادي. لكني - ومن أجل عظمة الأمر - لن أمانع في انحناء الأحباء أمامي وتقبيل يدي". لم يعودوا يسمحون له حتى بدخول منازلهم بعدما علموا بنقضه للعهد والميثاق. وبعد فشله في جميع مخططاته، سلّموه رسالة قصيرة مني لم أستلم لها رداً، قلت فيها: "ان نكران ونفي الملحدين والجهلة لوجود الخالق لا يعني موافقته على تدخلهم للتأثير في تنفيذ واجراء أوامره في استمرار اداء وظائف هذا الكون. والآن فكّر وتأمل جيدا في حقيقة فشل جميع مكائدك العديدة التي ابتكرتها للوصول الى غايتك. ولِمَ لَمْ تجني وتحصد من اية واحدة منها أية نتيجة او ثمر؟ أليس في ذلك دليل كاف على ضديّة ومخالفة أمانيك ورغباتك لمشيئة ورغبة الله منظم هذا الكون".

* * *

ذهبت الى بيروت مرورا بقوقازيا، ومن هناك توجهت الى الأرض الأقدس، وكانت أولى تعليمات حضرة المولى لي، هي: "لا تذكر جمال وأعماله السيئة". قلت: "لكنه كتب رسائلا عديدة في سبيل تفنيد عهد الله وميثاقه. ونشرها في كل مكان". أجاب حضرته: "نعم. لكنه طالما انه لم يوقعها او يعلن صراحة مسؤوليته عن كتابتها، فلن نشجب اسمه او أفعاله. علينا بستر أخطاء الآخرين دائما".

بعد عدة أيام، أمر حضرة عبدالبهاء الزائرين بالتوجه الى قصر البهجة. وجاء وهو يمشي ببطأ نحو مقام حضرة بهاءالله. وأمرنا بعد تناول الشاي بالوقوف حول المقام

بشكل دائري وانتظار خروجه من الداخل. وتفضل: "حتى لو سمعتم لعناً او شتماً او رموكم بالحجارة، فلا تعيروا ذلك اهتماما".

وبالفعل فقد حدث ذلك، اذ قام الناقضون الذين لايؤمنون بدين او إله من القاطنين في القصر بجانب المقام المبارك بشتمنا ورمينا بالحجارة. ورغم هذا، بقي ذلك اليوم عظيماً خالداً. وتتقد روحي وقلبي له كلما خطرت ذكراه في ذهني.

ان مما يحزن القلب هو الاطلاع على أفعال الناقضين الشيطانية وهجماتهم الخبيثة ضد حضرة المولى المحبوب، والتي لم تتضح حقيقتها لأي فرد من الأحباء في الخارج. لكني وبسبب وجودي في الأرض الأقدس استطعت رؤية ما أثقلوا به كاهله من أحزان يومية. فقد استطاعوا ذات يوم التقرب من عمدة مدينة عكاء ورشوته وحثّه على نفي حضرته من المدينة، معتقدين ان بمغادرته وابتعاده سيتجه الزوار اليهم ويعتبرونهم مركزا للأمر. لكن العمدة أعفي من منصبه فجأة وأعيد الى وطنه في تلك الأثناء.

وفي مناسبة اخرى، قدّم الناقضون الى حاكم حيفا احدى عباءآت حضرة بهاءالله وزوجاً من نظاراته، وطلبوا منه ارتدائها والذهاب لزيارة حضرة عبدالبهاء. فأحزن منظر الرجل قلب حضرته كثيرا وهو يشاهد ضيفه مرتدياً آثاراً تخص والده. ومع ذلك، لم يتفضل بكلمة واحدة حول الموضوع وعامل ضيفه بمحبته وأدبه الجم المعهود.

ومرت الأيام، واذا بهذا الحاكم يلقى في السجن مقيداً بالاغلال. ولم يتقدم أحد لمساعدته واطلاق سراحه سوى حضرة عبدالبهاء. فالتمس الرجل العفو والمغفرة بعدما شاهد عطف حضرته اللامحدود والغير متوقع، وقال: "انها ليست غلطتي، لقد خدعني أعدائك لارتكاب ذلك الخطأ الجسيم".

* * *

بينما كنت جالساً مع عدد من الاحباء صباح أحد ايام الاسبوع الأول من زيارتي لأرض الأقدس. دخل علينا أقا جان كاتب وحي حضرة بهاءالله سابقا، وألقى على الحاضرين تحيته ومعها ايماءة ساخرة، وقال: "الله أبهى! مجلسكم منور". فنهضت لاترك المكان الى غرفة اخرى. لكنه تبعني وردد نفس الكلمات. فتركت الثانية الى غرفة ثالثة، فلحق بي وهو يقول نفس الشيء. عدت الى الغرفة الأولى، وعاد بعدي وكرر نفس قوله: "الله أبهى! مجلسكم منور". تركت البيت وتوجهت بصحبة أحد المؤمنين الى محل داخل السوق، فتبعنا وراح يحوم حولنا ويردد الأسم الأعظم. تركنا المكان وتوجهنا الى مكان آخر لأحد الأحباء. فلحق بنا ووقف خارجا وهو على نفس الحال، ولم نتمكن من مغادرة المكان قبل تجمع المارة. وبقي يلاحقنا ويردد نفس الكلمات حتى لفترة ما بعد الظهر.

عندما علم عمدة مدينة عكاء بمضايقات أقا جان لنا، أرسل بعض الجنود لاعتقاله واصطحابه الى بيت الحاكم. ثم بعث بالرسالة التالية الى حضرة المولى: "نحن بصدد ارسال عدد من الجنود الى اليمن. وان سفينتهم راسية في الميناء ومستعدة للابحار. فان كنت موافقاً، فسأنفي هذا الرجل الى اليمن". فأجابه حضرة عبدالبهاء على الفور: "سوف لن يرضيني ذلك".

رغم اطلاق سراح أقا جان، الا انه لم ينقطع عن خلق المشاكل لحضرة المولى. وروج ذات مرة بين الأحباء والناقضين على حد سواء خبراً مفاده ان حضرة بهاءالله جاءه في المنام ووعده بالمساعدة اذا نهض في الوقت المناسب لقيادة العالم البهائي وعزل الغصن الأعظم. كانت أعماله مزعجة حتى بالنسبة للناقضين الذين عقدوا العزم على قتله واحراق جثته. ومع ذلك، ظل يتمتع بحماية حضرة عبدالبهاء دائماً.

* * *

غالبا ما كان الحاكم وموظفوه يتبعون حضرة عبدالبهاء الى المناطق المحيطة بقصر البهجة وهو في طريقه لزيارة مقام والده - ان كان راكباً أم راجلاً - فيقضون

أوقاتهم في تناول الشاي والمرطبات في الوقت الذي يقوم فيه حضرته ومن يتبعه من الأحباء بتقديم مظاهر الطاعة والاحترام لمقام حضرة بهاءالله. وكثيرا ما شوهد حضرته وهو يحمل على كتفه وعاءاً مملوءاً بالماء او كمية من التراب داخل عباءته لينقلها الى حدائق المقام المبارك.

ظل حضرة عبدالبهاء ينقل أصص الزهور من حديقة الرضوان الى حدائق القصر كل عام مرتين، واستمر على ذلك لمدة ست سنوات. وفي كل مرة كان عدد الأصص المنقولة لايقل عن مائة.

ان من أكثر المواكب جمالا واثارة، موكب حضرة عبدالبهاء وهو يحمل على كتفه أصص الورد يتبعه الاحباء والزائرون وهم يسيرون خلفه اثنين اثنين وعلى اكتافهم أصص الورود والأزهار يتقدمهم ميرزا محمود كاشي وهو يرتل الأدعية بصوته الجهوري الجميل. وذات يوم علّق أحد قادة الجيش وهو بين ضباطه لدى مشاهدته ذلك الموكب الروحاني مخاطباً حضرة المولى: "هذا هو جيش الملكوت. وهؤلاء هم ملائكة العالم العلوي".

أتذكر ذلك المساء الذي أقتربت فيه ذكرى صعود حضرة بهاءالله. اذ جهّز حضرة المولى مائتا فانوس ووضع عشرين شمعة في واحد منها، بينما وضع شمعتين في كل واحد من البقية. وعند الغروب، تقدم موكب الاحباء في طريقهم الى قصر البهجة حاملين فوانيسهم بأيديهم. وصادف ان اجتزنا معسكرا للجنود، فنهض الضباط من أماكنهم ليؤدوا التحية لحضرة المولى بشكل أثّر في نفوسنا كثيرا وأدمعت له العيون. وعندما وصلنا الى المقام المبارك كان هناك صفيّن من المصلين، الأول للاحباء والثاني للضباط وجنودهم. وبعد انتهاء الزيارة، التفّ الضباط حول حضرة المولى في محبة واحترام فاستضافهم بتقديم الشاي والمرطبات لهم.

كانت تلك الليلة من الليالي الرائعة التي لاتنسى أبدا، فقد بدت فيها كل ذرة من ذرات الأرض والسماء وكأنها تقتبس وتشع في وقت واحد، بهاء وعظمة عالم الملكوت.

لم يحتمل الناقضون رؤية أداء مظاهر العبودية لمقام حضرة بهاءالله، فأسرعوا الى رجال الدين في عكاء يظهرون اعتراضهم على ذلك.

مضت تلك الليلة دون ان يغمض لحضرة عبدالبهاء جفن، وبقي يقضاً طوال الليل، بينما أمضى بقية الأحباء ليلتهم في بيت الزوار المتاخم للقصر غير محتملين فكرة العودة للمدينة والابتعاد عن حضرته. وجاءت أكثر اللحظات حزنا للأفئدة في تلك الليلة مع بزوغ أنوار فجرها، عندما توجه الجميع الى المقام المبارك مرة اخرى ليكتشفوا وجود أقا جان داخل المقام. كان واضحاً ان قلب حضرة عبدالبهاء يحترق ألماً، لكنه بقي صامتاً ولم يتفضل بشيء. وتقدم من المقام المبارك ليختار لنفسه مجلسا في مكان ترابي قريب، ثم التفّ حوله ما يقارب المائتا مؤمن وهم يتذكرون أيام لقاء جمال القدم.

فجأة.. اندفع ميرزا أقا جان ليخرج من المقام وهو حافي القدمين حاسر الرأس مرتديا ملابس الحداد، وراح يهيل التراب على رأسه وهو يردد: "محبوبي! أين أنت يا محبوبي!" فكانت تصرفاته سخيفة تبعث على الضحك. عندها حاول الناقضون - الذين يسكنون القصر - سحبه جانباً لعدة مرات، لكنه كان يفلت منهم في كل مرة ويعاود الرجوع الى داخل مجلسنا مكرراً بعض أيات وألواح حضرة بهاءالله بطريقة غير موقرة. واستمر في الصراخ والركض كما لو كان مخموراً لايستطيع السيطرة على توازنه حتى وقت تفرقنا. ومع هذا، لم ينقطع حضرة المولى عن احترامه وحمايته والاعتناء به.

* * *

ان عملية نقل الرمس المطهر لحضرة الباب من ايران الى الأرض الأقدس وايداعها سفح جبل الكرمل هي من كبريات الخدمات الجليلة العديدة التي قدمها حضرة عبدالبهاء للأمر المبارك، والتي تحققت بها جميع نبوءات رسل القبل المذكورة في الكتب المقدسة عن بهاء جبل الكرمل والمناطق المحيطة به.

كان صندوق الرمس المطهر مودعا ومحفوظا بسريّة مطلقة في منزل جناب وزير في مدينة اصفهان. وعندما حان الوقت المناسب، أصدر حضرة المولى أوامره بالشروع في نقله من أيران الى الأرض الأقدس. فأشير الى القائمين بعملية النقل بالتوجه الى العراق حيث أودعوا أمانتهم المطهّرة في عهدة الأحباء هناك وعادوا الى ديارهم في ايران بعد ان زاروا المراقد الشيعية المقدسة. وأوكلت مهمة الاعتناء بالصندوق المبارك في بغداد الى بيت عمي حسين وكيل. وبعد فترة، وصلت تعليمات اخرى تأمر بارسال الأمانة الى بيروت. فاستلم المهمة الجديدة عدد آخر من المؤمنين. وفي النهاية وصل صندوق الأمانة الألهية الى يدي حضرة المولى.

دعوني أعود بكم الى الوراء قليلا، الى الأيام التي عزم فيها حضرة المولى شراء قطعة الأرض التي عيّنها وأشار اليها حضرة بهاءالله على سفح جبل الكرمل لتكون مقراً لمرقد حضرة الباب. فعندما علم الناقضون بنيّة حضرته على شراء قطعة الأرض، تحركت في نفوسهم روح المعاندة الحقودة وأسرعوا الى مالكها يقنعوه بعدم البيع، مؤكدين له ارتفاع قيمتها مستقبلا وخلال فترة بسيطة الى عشرة أمثالها. كما حثّوا الآخرين على كتابة الرسائل للحكومة بدعوى ملكيتهم لبقية اراضي جبل الكرمل. ونتيجة لتلك المكائد ، شغلت عملية شراء قطعة الأرض من وقت حضرة المولى أكثر من ستة شهور من العمل المتواصل. كما انها كانت مثل جزيرة وسط أراضي الآخرين، ولم يكن هناك من طريق او وسيلة للوصول اليها. فأثقلت الهموم كاهل حضرته وقرر عدم متابعة الموضوع وتسليم أمره الى الله. وبمرور الوقت، زاد الناقضون من نشاطهم خلال فترة صمته وفرحوا وهللوا لاعتقادهم بنجاح مقصدهم تماما.

ذات يوم، جاء - بدافع ذاتي تام - أحد أصحاب الأراضي المجاورة لأرض مقام حضرة الأعلى يطلب لقاء حضرة عبدالبهاء. وشرح خلال المقابلة مكائد أعداء الأمر وقدّم عميق أسفه، والتمس العفو والمغفرة وأظهر استعداده لبيع أية قطعة أرض يرغب بها حضرته.

عندها، شرع حضرة المولى بوضع خطط بناء مقام حضرة الباب على الفور. لكن وصول مثل هذه الأنباء الى مسامع الأعداء حدا بهم لتلفيق تهماً جديدة ضد حضرته. فكتبوا للبلاط العثماني متهمين أيّاه بالتخطيط لبناء قلعة حصينة على سفح جبل الكرمل، وأكدوا خطرها العظيم على سلامة الامبراطورية. فجاء فرمان الحكومة يأمر بوقف أعمال البناء فورا، ثم لحقه عدة أوامر مماثلة. فعرض حضرته القضية على لجنة حكومية للتحقيق في الموضوع. وجاء قرارها في النهاية بالسماح في استكمال البناء.

ونتيجة لكل هذه المؤامرات والأعمال الرديئة، نفذ صبر عدد من الأحباء واقترحوا على حضرته توضيح حقيقة الموضوع بكامله الى الحكومة.

فأجابهم: "مستحيل! كيف يمكنني شرح مثل هذه الأمور للآخرين دون تقديم شكوى ضد أفراد اسرتي الخاصة؟ ثم ماذا سيقول الناس عن ذلك؟ بالتأكيد سيقولون ان أفراد عائلة رسول عظيم جاء من أجل وحدة العالم يتقاتلون فيما بينهم الآن. يجب معالجة هذه البلايا المستعصية بالصبر والمغفرة. فان جميع ما ذكرته في ألواحي عن الأعمال الخاطئة، هو لمساعدة الأحباء على الثبات بشكل أفضل وتقوية الضعفاء منهم لعلهم يصبحون مؤمنين شجعان راسخين. لقد سلّمنا أمورنا بيد الله فهو المعين الأعظم وعلينا الاهتمام بأفعالنا الخاصة وسلوك سبيل العبودية وتجنب ما سواه. وبالتأكيد سيجني من سار على هذا النهج ثمار صبره وتحمله وسيكون من أصحابي خدّام عتبته المقدسة. علينا بالتضرع الى الله عسى ان يغفر ذنوبنا ويرحمنا برحمته

الواسعة ويقبل دعاءنا للتوبة وينور ادراك الخلق للحق. ومن ينحرف عن هذا الصراط فسيندم لا محالة".

باشر حضرة عبدالبهاء في تهيئة المكان المناسب لرمس حضرة الباب المطهر. وطلب من أحباء رانجون في بورما صنع تابوتين أحدهما من الخشب الممتاز والآخر من الرخام الفريد ذا اللون اللامع البرّاق. وباتمام تنفيذ هذه المطالب، أمر بتزيين سقف وجوانب التابوت الرخامي بالأسم الأعظم. فأوكلت هذه المهمة الى الخطاط الخالد مشكين قلم، الذي خطّها بأسلوبه الرائع الأنيق.

عندما أكمل أحباء بورما مهمتهم، أحضروا عربتين لنقل شحنتهم الى الشاطيء، وسحبوها خلال الطريق وهم يرتلون الأدعية والمناجاة. فجذبت روعة موكبهم العديد من الناس للأنضمام اليهم. وبوصولهم الى الميناء، وضعوا أمانتهم في أحد المساجد. وعندما تسآءل الحاضرون عن سبب فرحتهم. برز أحد الأحباء ليحكي لهم قصة حضرة الباب وطريقة استشهاده وقصة دفنه في جبل الكرمل. فأنجذبت بذلك قلوب عدد من الموجودين وانظموا لخدمة الأمر المبارك في بورما.

* * *

لم يهنأ حضرة المولى بلحظة راحة واحدة، وكان يبدو في بعض الأحيان كملاح سفينة وسط محيط متلاطم الأمواج. الا ان ذلك، لم يهن من عزمه أو يفتح لليأس او القنوط طريقاً الى قلبه أبداً. أذ لا علاقة لمثل هذه الأمور بحضرته. وظل يخرج في كل مرة من بين الظلمات، بخطط وانتصارات جديدة.

ولم يكد ينتهي بعد من بناء مقام حضرة الأعلى، حتى أمر الأحباء ببناء أول مشرق أذكار للعبادة في قلب قارة آسيا في مدينة عشق آباد في روسيا. وطلب من جناب أفنان(45) ابن خال حضرة الباب التوجه من وطنه في يزد الى عشق آباد للأشراف على اقامة المعبد. وعند وصوله شارك الأحباء شرف استقباله كل من القنصل الأيراني العام وحاكم المنطقة والتجار وكبار الشخصيات. وفي كلمته أعرب الحاكم أمام الحاضرين عن عميق سروره وامتنانه لاقامة أول معبد للبهائيين في العالم داخل حدود مناطق سلطته.

وتمت اجراءآت البناء بسرعة، اذ نهض الأحباء حال اكتمال خرائطه للشروع في العمل. ووضع ممثل القيصر حجر الأساس بنفسه. وخلال أربع سنوات فقط أكتمل تشييد معظم أجزائه.

* * *

أمرني حضرة عبدالبهاء - في تلك الأثناء - بالتوجه الى قوقازيا وعشق آباد. وهناك حظيت بشرف لقاء جناب أفنان الذي كان تجسيدا للكمال والنزاهة، واستطعت بسهولة مشاهدة صعوبة انتماء هذا الرجل الى هذا العالم المادي، فلم يكن يعطي اهتماما يذكر لشؤونه الشخصية والمادية، واستغل كل مواهبه الروحانية وخبراته الأدارية في تنفيذ المهمة الموكلة اليه من حضرة المولى. ومع انه ضحى بأغلب ثروته لاقامة بناء هذا المعبد، الا ان ثروته بقيت تفي بكل متطلباته.

حان وقت توديع أحباء عشق آباد والرحيل الى مشهد. وهناك قابلت محمود زرقاني وشاركته الاقامة والخدمات الأمرية. فالتقينا بكل شرائح المجتمع. وخلال فترة قصيرة، اشتهرت خدماتنا التبليغية بين الناس وجاءوا يطلبون حلولا حتى لمشاكلهم المختلفة التي لا علاقة لها بالأمر. وكانوا يعودون - بفضل الله - جميعاً الى بيوتهم سعداء قانعين. ونجحت حملتنا التبليغية بدرجة كبيرة خشي معها بعض الناس من ايمان جميع شخصيات المجتمع المهمة خلال سنة واحدة. وهب لمساعدتنا مبلغون اخرون ومن مناطق اخرى. فعقدت الجلسات في كل انحاء المدينة وشكلت لجان من الاحباء لاطعام الفقراء وخدمة الناس.

كنا ما نزال في خراسان عندما وصلتنا انباء مذابح يزد الكبيرة التي استمرت أكثر من شهرين، وراح ضحيتها 195 مؤمناً، قتلوا بدون رحمة. فنشرت تلك الأخبار المفزعة الارتباك بين صفوف مؤمني مشهد المستجدين0 وساعد حاكم يزد

اخرى. فعقدت الجلسات في كل انحاء المدينة وشكلت لجان من الاحباء لاطعام الفقراء وخدمة الناس.

كنا ما نزال في خراسان عندما وصلتنا انباء مذابح يزد الكبيرة التي استمرت أكثر من شهرين، وراح ضحيتها 195 مؤمناً، قتلوا بدون رحمة. فنشرت تلك الأخبار المفزعة الارتباك بين صفوف مؤمني مشهد المستجدين. وساعد حاكم يزد الغوغاء في أعمالهم التخريبية وحثهم على سفك دماء البهائيين وهدم منازلهم ومصادرة ونهب ممتلكاتهم بدلا من حمايتها.

وخلال ايام تلك الفوضى، وصلت مدينة يزد احدى خادمات أمر الله المشهورات وتدعى علوية خانم. فألقي القبض عليها حال ان وطأت أقدامها أرض المدينة وارسلت الى السجن لتخضع لشتى أنواع التعذيب. وفي النهاية أرسل في طلبها رئيس الشرطة، ونصحها بقوله: "ان كلمة نكران واحدة منك، تخلصك من كل هذه المعاناة". فأجابته: "لا يمكن ذلك تحت أي ظرف. لن أتفوه بتلك الكلمة لانها ستحجبني عن كل النعم الألهية الخالدة. انني مستعدة للتضحية بهذه الحياة الفانية في سبيل اعلاء كلمة الله". وعندما سمع الحاكم بقصة اعتقالها، أصدر أمراً بارسالها الى آباده.

خلال تلك الاضطهادات، لم يصغ أحد لصراخ البهائيين في طلب العدل والأنصاف، لا في ايران ولا في بقية الأقطار المجاورة، ووقع المؤمنون الأعزاء تحت رحمة الغوغاء وأفعالهم غير المسؤولة والمدعومين من بعض رجال الدين الأشرار وبعض أكثر الحكام مغمورية. والشخص الوحيد الذي مدّ يد العون لهؤلاء المظلومين هو حضرة المولى فقط، والذي كان هو نفسه سجينا محجوزاً بين أسوار مدينة عكاء يحيط به أحقر الأعداء. فأعتنى بطلبات الاطفال والنساء والشباب والشيوخ المستعجلة ممن شملتهم نار الاضطهاد.

* * *

تآمر الناقضون باستمرار ضد حضرة عبدالبهاء، وشكلوا مجموعات تحركت مثل الأفاعي السامة في كل الاتجاهات. فوصلوا الى الحاكم والشرطة السريّة وكبار العلماء والموظفين والى كل شخص استطاعوا التأثير عليه وتحريضه في فلسطين وسوريا وتركيا. ومع ذلك بقي حضرته ساكناً هادئاً، ولم يتقرّب من السلطات لتوضيح الموضوع أبدا. وعانى في صمت وسكون وصلّى من أجلهم بحرارة، عسى أن تفتح بصيرتهم ويكفّوا عن خلق المشاكل والمظالم ضد المؤمنين الأبرياء في عكاء. وكلما وصلته هدية أرسلها من فوره الى عائلته الذين نقضوا عهد الله. وبدلا من الشكر والامتنان، كانوا يرسلونها بدورهم الى الحاكم والى قادة الجيش وغيرهم من المسؤولين في محاولة لاقناعهم للتحرك ضده. قاصدين من ذلك نفيه الى مكان بعيد مجهول. فهم يعتقدون ان جميع الأحباء سيعتبروهم مركزاً للأمر طالما انهم يمتلكون المقامات المتبركة.

كان مجد الدين ابن عم حضرة المولى أكثر الناقضين فاعلية، ومركزا ومحورا للأعمال القبيحة، وبقي يسخر من زوار حضرة عبدالبهاء دائما، ويقول: "ان وجودكم مؤقت هنا. قريبا ستعودون الى دياركم. وسيعود في النهاية كل شيء تحت تصرفنا وسيبحث الجميع عن الحماية تحت ظلنا".

اعتاد حضرة عبدالبهاء زيارة مقام والده في قصر البهجة مرة كل اسبوع. وفي محاولة منه لتهدئة عداوة محمد علي وأعوانه، قرر البقاء في عكاء وعدم الذهاب الى هناك. وكان كلما رغب قلبه في الزيارة، يصعد الى سطح منزله ويتوجه بوجهه الى

المقام المبارك للصلاة. واستمرت هذه الحالة لمدة سنتين. وفي بعض الأحيان، كنّا نسمعه وهو يرتل لوح الزيارة بصوت مرتفع، فتتفطر قلوبنا حزناً لذلك.

وفجأة، ومثل زلزال رمى بالأنقاض على رؤوس الجميع، سقطت نتائج شكاوي الناقضين ومؤامراتهم. وأصدر المسؤولون أمراً يقضي بوجوب اقامة جميع أفراد العائلة المباركة داخل أسوار مدينة عكاء، وعدم السماح لأي فرد منهم بتخطي حدودها. فأقتيد جميع الناقضين من قصر البهجة مجبرين للسكن وللأحتجاز داخل المدينة. أما بالنسبة لحضرته، فلم يتغير شيء، اذ كان يسكن أصلاً داخل المدينة. واتضح خلال فترة قليلة للمسؤولين ان محمد علي ومجد الدين هما أساس كل ما وقع من مشاكل. فتدخّل حضرته لصالحهما وطلب من السلطات السماح لهما بالعودة للسكن في قصر البهجة.

* * *

هاج أعداء الأمر وقرروا توحيد جميع قواهم لمهاجمة حضرة عبدالبهاء، بعدما لاحظوا شدة محبة حاكم عكاء الجديد له. وزاد في هياجهم أيضا الصداقة القوية التي ربطت بين الحاكم العسكري بدري بك وحضرة عبدالبهاء. فقرروا ارسال التقارير الملفقة المتضمنة أشد التهم خطورة للحكومة العثمانية. فإدعوا ان حاكم عكاء وقائدها العسكري وضباطه أصبحوا جميعا تحت أمرة حضرة عبدالبهاء، واتهموهم بحشد وتدريب ثلاثين ألف جندي ورفع علم العصيان المنقوش عليه الأسم الأعظم، واقناع قبائل الصحراء العربية بالانضمام الى التمرد. وزعموا ان حضرة المولى ادعى انه عودة السيد المسيح، وان سلطته تشمل جميع أمم الأرض وحكامها.

وفي جوابه على هذه التهم، ارسل حضرته جملة واحدة فقط، قال فيها: "اقرأوا التقارير. ولكن اطلبوا من معدّيها تقديم الأدلة والشهود". لكن الحكومة لم تأخذ بهذا الرأي وقبلت الاتهامات بدون التحري عن صحتها، لأنها كانت تحمل تواقيع أخوته وأبناء عمومته وهم أقرب الناس اليه.

ولم يمض وقت طويل حتى غطت سماء مدينة عكاء غيوم الفوضى من جديد، فعزل أصدقاؤه ومؤيدوه من وظائفهم بصورة مفاجئة. وعندما جاء الحاكم الشهم لتوديع حضرته بعد عزله من منصبه، أكد له حضرته انه سيعود الى أعلى المناصب في المستقبل وستشمله الرعاية الألهية دائما. ورغم ان قرار التنحية شمل الحاكم العسكري ايضا، الا انه بقي سعيداً لخدمته حضرة المولى.

احتل ادارة البريد والبرق موظفون جدد. ففتحوا جميع الرسائل وقرأوها، ودققوا في كل البرقيات، وانتشرت الشرطة السرية في كل مكان وفرض حظر التجول الليلي. فهلل اعداء الأمر لهذه الاجراءآت وفرحوا بها.

في تلك الأثناء، طلب حضرة المولى من الاحباء مغادرة مدينة عكاء والانتشار خارجها، ليبقي وحيدا تحدق به الأخطار من كل الجهات. ومع ذلك، ظل يحتفظ بهدوئه ورباطة جأشه، وراح يجري بعض الاصلاحات لمسكنه، وشوهد وهو يزرع سيقان أشجار العنب في حديقة منزله الصغير.

لكن سيول رسائل الاتهام لم تنقطع عن حكومة السلطان في استنبول. ورغم وجوب التحري عن صحة مثل هذه التهم، الا انه لم يسأل أحد من الأحباء عن شيء منها، واعتبرت صحيحة ومسلم بها. فوصلت عكاء على أثر ذلك لجنة حكومية من أربعة رجال لتأكيدها وتعزيزها. ولم تكد تطأ أقدام هؤلاء الموظفين الكبار أرض شاطيء عكاء حتى التفّ الناقضون حولهم بكل أشكال التملق والرياء واستضافوهم وقدموا لهم الهدايا الثمينة. الا انهم لم يحصلوا على أية وعود معينة. لكن قلوبهم بقيت مليئة بأمل نفي حضرة المولى قريبا.

ومما زاد في غضب أعضاء اللجنة ان حضرته لم يحاول التقرب منهم أو لقائهم. وفي محاولة منهم لاظهار علامات الازدراء، بعثوا له باستدعاء للمثول أمامهم تحت

اسم "عباس". فتوجه حضرته حال استلامه خطابهم الى مكان مجلسهم - الذي غص بجموع الناقضين - وبادرهم بقوله: "اني فخور وسعيد لمخاطبتكم إياي باسم "عباس" بهذه البساطة. انها نفس الطريقة التي خوطب بها رسل الله جميعا. هل سمعتم أحداً يقول، موسى باشا او عيسى بك او محمد خان؟ انهم ينادونهم ببساطة بأسمائهم، موسى.. عيسى .. محمد".

ذهل أعضاء اللجنة من هذا التصريح الجريء، وسأله أحدهم: "سمعنا ان في بيتك كتباً تشكل خطراً على الصالح العام".

أجاب حضرته: "لم يكن في حوزتي مثل هذه الكتب قط".

قال نفس الضابط: "لكن هناك من يشهد على صحة ذلك".

هنا نهض حضرته من مقعده ليترك المكان وهو يقول: "أخبرتك بعدم وجود مثل هذه الكتابات في منزلي وهذا يكفي". فأدهشت شجاعته أعضاء اللجنة التي اعتقدت انه تحت رحمتها تماما.

كانت فرحة الناقضين بهذه النتيجة لا حدود لها. أما الأحباء فغمرهم حزن لا قاع له. وطلب من حضرته بعض منهم وعدد من افراد اسرته المخلصين مغادرة مدينة عكاء عن طريق البحر. وأبدى قبطان احدى السفن استعداده لنقله الى أي ميناء يرغب به. لكن جوابه كان واضحاً وصريحاً: "لن أهرب. فلم يهرب حضرة الباب وتقدم الى ميدان الفداء. وكذلك فعل حضرة بهاءالله".

بدت ملامح السعادة والرضا واضحة على وجوه أعضاء لجنة التحقيق لدى صعودهم الى سطح السفينة المتوجهة الى استنبول، وكانوا تواقين للوصول الى حكومة السلطان لتقديم نتائج تحقيقاتهم. لانهم شاهدوا فيها فرصة ذهبية لاظهار انفسهم كحماة متحمسين للعرش ومدافعين أشداء عن الامبراطورية. وصرح أحدهم وهو يخاطب معاونه، ستكون مكافأتي على هذا التحقيق ولاية دمشق. وأول عمل سأقوم به عند دخولي مكتبي هو شنق عبدالبهاء على أبواب عكاء.

لكنه وقبل وصول اللجنة الى هدفها لتقديم تقاريرها الملفقة، بدأت قواعد الامبراطورية العثمانية بالانهيار، وسقطت المملكة وغاصت في الفوضى، ولم يلتفت أحد الى تلك اللجنة المرتشية، ونسيت تقاريرها وباءت كل محاولاتها الشيطانية بالفشل الذريع.

وعندما سمعنا بعد حدوث الانقلاب أخبار الاف الرجال وهم يقتادون الى أعواد المشانق في جميع انحاء الامبراطورية لمجرد اتهامهم بالجاسوسية او حتى لمجرد الشك في ولائهم وبدون التحقق من تهمهم. أدركنا مقدار ما كان يحيط حضرة المولى من خطر عظيم نتيجة دسائس أفراد عائلته، ونتيجة للتقارير والاشاعات التي أطلقوها حوله. وما كان سيحدث لو أثمرت نتائج تقارير لجنة حكومة السلطان العدائية!

فمن المدهش والمذهل حقاً، بقاؤه حياً بعد كل تلك التهم والمحاولات والهجمات من جميع الجهات. أفلا يدل ذلك على تدبير يد الله لهذا الكون، وتنفيذ واجراء ما يريد؟

* * *

والآن.. لم يبق لي وأنا في أواخر أيام حياتي سوى المجهولية والضعف والجهل والغفلة والاهمال والتفاهة والنقص وعدم الفائدة والفاقة والخجل والعوز والعصيان والذنوب والسيئات والظلام والمادية والزوال والأنانية والرغبات الحقيرة. ان كل خطيئة او سيئة يمكن تصورها هي من صفاتي.

أنا لا أكتب ذلك تواضعاً، بل هذه هي الحقيقة والامانة والصدق. ان بركات الله واضحة وجلية. ففي أدرنة، وقبل خمسين عاما مضت، عندما دخلت محضر شمس الحقيقة - التي يجب على الجميع الخضوع لها - حاولت منذ تلك الساعة تسخير كل شهيق أخذته لارادته، وتوجيه كل خطوة خطوتها باتجاهه. ولا أعلم ان كان قد قبل خدماتي؟ لكن رحمته ومحبته وكرمه احاطتني دائما، وتجاهل بشفقته العظيمة كل

أعمالي القبيحة. كلما انغمست في أفكاري التافهة، أشرقت لي انوار روحه أكثر، وكلما أخطأت أكثر ازداد كرمه. لقد أنقذني من أعظم المصائب ونجّاني من شرور النفس.

لا ينج أحد من البشر من الشدائد، فالكل محاط بالمصائب والمتاعب من الملوك والسلاطين الى الخدم والعبيد. ان مصائب الملك العادل أكثر من مصائب رعيته، ومشاكل الرئيس المنصف أزيد من مشاكل مرؤوسيه. ان بعض الناس اختاروا النفي سنيناً من أجل البقاء على قيد الحياة فقط، او من أجل الحصول على قوتهم اليومي. وأكثر من ذلك، فقد رمى الكثير من الاغنياء والعلماء أنفسهم في خضم المهالك باستمرار، بسبب الطمع ومن أجل السعي وراء رغباتهم النفسية طلباً لسراب الجاه والشرف. كم من الناس اعتقلوا وألقي بهم في غياهب السجون وقاسوا من ذل ويلات النفي والاعتقال وحتى الاعدام في سبيل جرائمهم وفسادهم! وما أنا الا واحد من اولئك الاشخاص. لقد شاركتهم كل الدوافع الشريرة التي عوقبوا من أجلها. كم أنا شاكر حمايته لي وستره عيوبي وغفرانه ذنوبي. لو حرقت في كل حين، لن أفِ حق مغفرته ورحمته. حقاً أنا نكرة لا أساوي شيئاً أبداً.

ان الاحباء يحترومني بصفتي مبلغاً للأمر. لكني لا استحق ذلك، لأنهم هم المبلغون الحقيقيون، انهم يواجهون مصاعب الحياة ليحصلوا على معاشهم اليومي ثم لينفقوه عليّ وعلى أمثالي ممن يستطيعون السفر والترحال. ان هؤلاء المؤمنين الشرفاء هم الذين ضحوا بكل شيء لأجلنا. ثم نوصف نحن في النهاية ب "ناشري نفحات الله". لكننا لم نضحي بشيء، بل كنّا نأخذ ونأخذ دائما. وضحى اولئك المؤمنون الشرفاء بكل شيء من أجل الله. أما أنا وأمثالي فقد وصلنا الى أعلى مقامات الشرف والراحة بدون عناء او تضحية. انني أدعو الله ان يشملني برحمته مستقبلا كما غمرني بها عبر الآف الأميال سابقا.

عشت بفضل حضرة المولى وتحت ظل رحمته في الأرض الأقدس حوالي عشر سنوات، نلت في كل يوم منها من نعماء الجنة، وشاهدت ما رآه موسى في سيناء. وأنا أحمد الله على انني نلت وشاهدت عطف وكرم وخضوع الأحباء التي - ان قيست - فهي مثل قطرة أمام بحار عطف ومحبة حضرة عبدالبهاء وحضرة الورقة العليا(46) وحضرة الوالدة الطاهرة(47).

يا الهي! أنا لست بهائياً حقيقياً. ساعدني واجعل أعمالي مثمرة، وساعد حضرة المولى! لقد كتبت هذا الكتاب بأمر منه. أنني رجل عاجز كبير السن، وفي كثير من الأحيان أنسى مقصدي خلال كتابتي وتسلسل أفكاري، فأنهض ساعتها لأترك الكتابة. لكن قلمي يعود لأكمال القصة من جديد عند عودتي للعمل ثانية. ان هذا الخادم الحقير لم يدخل مدرسة من قبل قط، ولا علم له بقواعد النحو وأصوله.

التمس من كل البهائيين - روحي لهم الفداء - طلب المغفرة لي من العتبات المقدسة، لأني لا اشاهد في نفسي سوى الذنوب، ولا يوجد بين خّدام الله سوى الصفح والمغفرة.

والحمد لله رب العالمين

17 مايو 1912م

خاتمة الكتاب

كان كاتب هذه المذكرات - الحاج ميرزا حيدر علي المعروف لاحباء الغرب باسم (ملاك الكرمل) - من المقربين جداً لقلب حضرة عبدالبهاء. ولقد أرسل حضرة المولى أرق الرسائل لهذا الجندي المحنك خلال تجواله وسفره في أمريكا. وكرر في أحداهن بعد كل فقرة كان يصف بها لقاءاته والمآدب التي حضرها والمصدقين الجدد، عبارة (اني افتقدك كثيرا).

ماذا حدث لحيدر علي في النهاية؟

بقيت ترد الأرض الأقدس من جميع احباء العالم رسائل كثيرة تطالب بزيارته لهم. لكن حضرة المولى لم يوافق على ذلك لكبر سنه. وغالبا ما لفّه بعباءته وكرر بمحبة عبارة: "الحاج لنا.. الحاج لنا..".

طلب حضرة المولى من حيدر علي التكفل بتدريس أطفال بيته المبارك دروس الأخلاق البهائية. فحضر تلك الدروس جميع أحفاد حضرته ومن بينهم حضرة شوقي أفندي، الذي أصبح فيما بعد وليّا للأمر المبارك. فعرف المعلم مقام تلميذه وهو في تلك السن المبكرة. فكان كلما دخل حضرة شوقي أفندي الدرس، نهض ميرزا حيدر علي احتراماً له. وغالباً ما همس في أذنه: "تكفيك مدرسة حضرة المولى".

يشاهد في العديد من صور الأحباء الجماعية التي أخذت للحجاج الواردين الى الأرض الأقدس في أيام حضرة عبدالبهاء في حيفا، رجلان متقدمان في السن يقفان على جانبي المجموعة دائما. أحدهما هو الحاج ميرزا حيدر علي والثاني هو ملا أبو طالب أحد مؤمني قوقازيا المعروفين.

وغالبا ما تبادل هذان الجنديان الشهيران الطرائف فيما بينهما من أجل ادخال السرور الى قلوب الأحباء. وبقيا قادرين على ذلك حتى أواخر أيام حياتهما.

وعندما مرض حيدر علي ولازم الفراش، بقي حضرة المولى المحبوب يزوره في غرفته ويستفسر عن صحته وراحته.

وذات مرة سأله: "كيف هو حال نومك في الليل؟".

فأجاب الحاج: "ليس جيداً".

وهنا تدخل أبو طالب على الفور عند سماعه ذلك وقال: "هذا ليس صحيحاً، انه يشخر طوال الليل". فأضحكت عبارته حضرة المولى والحاضرين جميعاً.

أمر حضرة عبدالبهاء اثنين من الأحباء على معاونة الحاج حيدر علي في السير تحت أشعة الشمس كل صباح. وذات مرة، سأله ابن عمه "وكيل"، وهو ممسك بيده: "ماذا تريد أكثر من ذلك؟ ان حضرة المولى المحبوب يأتي بنفسه كل يوم لرؤيتك ويمنحك القوة لتحمل مشاق هذه الحياة".

ابتسم حيدر علي وأجابه: "ان كنت تحبني حقا، فإدعو لي كي أموت ثابتا على العهد و..". فقاطعه ابن عمه قبل ان يكمل جملته، وقال: "ماذا تعني يا أبن عمي العزيز؟ ان عمرك الآن قد تجاوز التسعين عاما، وحضرة المولى يحبك ويحترمك كثيرا".

فأجاب حيدر علي: "نعم، هذا صحيح. لكنك لا تستطيع تصور مقدار دهاء النفس ومكرها وغدرها. انها ترافق الانسان الى حافة القبر. ولا تحمينا من قبضتها القاتلة سوى العناية الألهية التي نستمدها بالصلاة والدعاء".

عند زيارة حضرة المولى لحيدر علي في اليوم التالي، طمأنه بقوله: "سوف تنام جيدا.. سوف تنام جيدا".

الهوامش

1 - حاج محمد كريم خان، أحد تلامذة السيد كاظم الرشتي. اغتصب قيادة الفرقة الشيخية في ايران بعد وفاة السيّد. كان عدواً لدوداً لحضرة الباب.

2 - أحد ألقاب رجال الدين الشيعة المسلمين.

3 - ملاّ زين العابدين. لقّبه حضرة بهاءالله ب "ملاّ زين المقربين". كان مجتهداً شيعياً قبل ان يصبح بابياً. آمن بحضرة بهاءالله وأصبح من اتباعه المشهورين.

4 - الشيخ احمد والسيّد كاظم، مؤسسا المدرسة الشيخية اللذان توقعا ظهور حضرة الباب الوشيك.

5 - "صبح أزل"، لقب ميرزا يحيى، الأخ غير الشقيق لحضرة بهاءالله، تمرد في النهاية ضد حضرته وأصبح ناقضاً لعهد حضرة الباب. (أنظر القرن البديع، الترجمة العربية ص199). عيّنه حضرة الباب خليفة شكلياً له ورئيساً صورياً لأتباعه الى حين ظهور الموعود (أنظر القرن البديع، الترجمة العربية ص45).

6 - يعتقد الشيعة المسلمون ان الامام المهدي (الامام الثاني عشر) لم يمت، بل اختفى لألف سنة، وهو يعيش في مكان ما، وسوف يظهر في آخر الزمان لينشر العدل والسلام على الأرض. وحقق حضرة الباب هذه النبوءات باعلانه دعوته في عام 1844م.

7 - قصائد صوفية ذات نمط قديم مكونة من ستة مجلدات. نظمها جلال الدين الرومي في القرن الثالث عشر الميلادي.

8 - طائفة من المسلمين لها أفكار خاصة متطرفة ومبالغ فيها في تقدير مقام الامام علي (كرم الله وجهه) ابن عم الرسول محمد (ص).

9 - لقب أفنان يشير الى نسبة قرابة مع حضرة الباب.

10- أنظر تذكرة الوفاء، ص 108 - 116.

11- = = = = 5 - 8 .

12- كربلاء مدينة في العراق، حارب فيها الامام الحسين بن علي (رضي الله عنهما)، أعداؤه في معركة الطف غير المتكافئة، واستشهد مع العديد من أتباعه في سنة 68 ه.

13- مرقد الشيخ طبرسي. المكان الذي واجه فيه عدة مئات من البابيين حصار الجيش الايراني لمدة أحد عشر شهراً 1948-1949م. وفي النهاية تم ذبح البابيين جميعاً الا فئة قليلة سميت فيما بعد (بقية السيف) بعد أن أقسم لهم أعدائهم بعدم التعرض لهم واخلاء سبيلهم ان أوقفوا المقاومة وتركوا قلعتهم واستسلموا.

14- حضرة بهاءالله.

15- سيد محمد اصفهاني، عدو الديانة البهائية اللدود، اتحد مع صبح أزل في تمرده ضد حضرة بهاءالله.

16- أنظر لوح ابن الذئب. وكتاب القرن البديع الترجمة العربية ص 217.

17- ابن يعقوب. أنظر القرآن الكريم سورة يوسف آية 31. والتوراة، التثنية الاصحاح 50.

18- قلنسوة أو قبعة طويلة يرتديها الايرانيون لتغطية رؤوسهم.

19- اشارة الى تكية جلال الدين الرومي، مؤسس نظام رقص الدراويش في القرن الثالث عشر الميلادي.

20- بيت يستعمله الدراويش للتعبد والرياضة الروحية.

21- الأخ المخلص لحضرة بهاءالله.

22- سورة غافر آية 28.
23- حاكم مصر نيابة عن السلطان التركي.
24- اثنان من البابيين قاما بمحاولة فاشلة لاغتيال ناصر الدين شاه سنة 1852م. أنظر القرن البديع الترجمة العربية ص 83.
25- خشبتان محفورتان ملتصقتان توضع بينهما يدا او قدما السجين لاعاقته من الهرب.
26- لقب حضرة بهاءالله. ان أكثر اشتقاقات الاسم الاعظم استعمالا هما: "يا بهاء الأبهى"، وتستعمل للتضرع والتبتل. و "الله أبهى"، وتستعمل للتحية.
27- "أهل الصراط"، وتعني في المفهوم الاسلامي، أهل الدين الحق.
28- أنظر مقدمة الكتاب.
29- يجب تمييز هذا المكان عن الحديقة الأخرى (التي تحمل نفس الاسم)، والواقعة في وسط بغداد في العراق، حيث أعلن حضرة بهاءالله دعوته لأول مرة فيها.
30- أنظر الهامش رقم 21.
31- حضرة عبدالبهاء.
32- حضرة عبدالبهاء.
33- الكلمات المكنونة العربية رقم 42، لحضرة بهاءالله.
34- عندما حوصر الامام الحسين (ع) مع أصحابه على أرض كربلاء. منعهم أعدائهم من الوصول الى الماء رغم وجود مياه نهر الفرات أمام عيونهم، الا انهم كانوا يعانون من شدة العطش. لذلك يعتبر الشيعة هذه الحادثة على انها من الجرائم الكبرى. (أنظر هامش رقم 12)
35- ميرزا محمد علي، منحه حضرة بهاءالله لقب (ورقاء). من الشعراء المشهورين والمبلغين البارزين للديانة البهائية. استشهد مع ولده روح الله الذي كان صبياً لم يتجاوز الاثنا عشر ربيعاً من عمره.
36- أنظر الهامش رقم 9.
37- لقبان لأخوين بابيين مشهورين من سكان مدينة اصفهان. استشهدا بسبب اتهام رجال الدين لهما بالانتساب للديانة البهائية.
38- من مشاهير علماء البهائيين. أرسله حضرة عبدالبهاء الى أمريكا. من مؤلفاته المعروفة، الحجج البهية.
39- من ألقاب حضرة عبدالبهاء.
40- أنظر كتاب "عبدالبهاء" للكاتب حسن باليوزي باللغة الانكليزية ص 526، هامش رقم 58. حيث جاء ذكر رجل انجليزي اعتنق الديانة البهائية في ايران، وعمل موظفاً في شركة التلجراف الهندية الأوروبية. من المعتقد انه نفس الشخص الذي ذكره هنا الحاج ميرزا حيدر علي.
41- كلمة أغصان تشير الى أبناء حضرة بهاءالله من الذكور فقط. والغصن الأعظم هو أحد ألقاب حضرة عبدالبهاء.
42- هو ميرزا محمد علي، ناقض عهد حضرة بهاءالله.
43- شجرة السدرة الالهية، مصطلح يشير الى المظهر الالهي حضرة بهاءالله.
44- حضرة عبدالبهاء.
45- الحاج ميرزا محمد تقي أفنان. أنظر تذكرة الوفاء لحضرة عبدالبهاء صفحة 126-129.
46- حضرة بهائية خانم، شقيقة حضرة عبدالبهاء.
47- حضرة منيرة خانم، زوجة حضرة عبدالبهاء.

النهــايـة